

٢٤

البيان المغرب

في أخبار الأندلس والمغرب

لابن عذاري المراكشي

١

الجزء الرابع

تحقيق ومراجعة

الدكتور إحسان عباس

دار الثقافة

بيروت — لبنان

الطبعة الثالثة

١٩٨٣

تصدير

هذه قطعة من كتاب ابن عذاري «البيان المغرب» تختص بعصر المرابطين في المغرب والأندلس، وهي قطعة جليلة الشأن في القاء أضواء على تلك الفترة التي فقدت اكثر مصادرها الأصيلة، وقد كانت أوراقاً عثر عليها الأستاذ ليفي بروفنسال، ونشر منها الجزء الخاص باستيلاء السيد الكنبيطور على بلنسية، ثم قام الأستاذ هويسي ميراندا بنشر سائرها في مجلة « Hesperes » عام ١٩٦٠ .

ولما رأت دار الثقافة أن تعدّ كتاب ابن عذاري للنشر وتيسره للقارىء المشرقيّ في صورته المحققة، عهدت اليّ بالقاء نظرة على هذا الجزء من البيان المغرب، فصوّبت ما رأيته في حاجة الى التصويب، وعلقت في حواشيه تعليقات لازمة موجزة، ثم ذيلته بملحقات تسدّ بعض الخلل الواقع في هذه الأوراق وخاصة في أخبار يوسف بن تاشفين بين سنتي ٤٧٩ – ٤٩٥، راجياً بذلك كله تقديم العون للقراء والباحثين .

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل .

احسان عباس

[ابتداء أمر اللمتونيين]

[والموجب لخروجهم عن الصحراء إلى وطن المغرب أن أحد بني جدالة [1] ، ويعرف بيحيى بن ابراهيم من جدالة ، كان قد توجه لأداء فريضة الحج واجتاز في ايابه [2] على مدينة القيروان وذلك سنة ٤٤٠ هـ ، فحضر بها مجلس الفقيه المدرس أبي عمران الفاسي [3] ، فسأله عن قبيلته ووطنه ، فذكر أنه من الصحراء من قبيلة جدالة ، إحدى قبائل صنهاجة ، فقال له الفقيه: ما مذهبكم ؟ فقال له : ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب، لأننا في الصحراء منقطعين لا يصل الينا إلا بعض التجار الجهال ، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم . . . .] [4]

---

(١) جـــدالة (والجيم مصرية النطق) احـدى قبـــائل صنهاجة ، واخوتهم لمتونة ، وهم صحراويون ولهم بطون ضخمة وبلادهم مما يلي أرض السودان (مفاخر البربر : ٥٢) .

(٢) في مطبوعة الحلل : أيامه،وهو خطأ ؛ وعند البكري : ولقي في صدره، يعني في ايابه.

(٣) اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي التقى فيها يحيى بن ابراهيم بالفقيه أبي عمران ، بين ٤٤٠ . ٤٤٥، ٤٤٨ ، ٤٢٧، ٤٢٩ (النويري ٢٢ : ١٧٢ وصبح الاعشى ٥ : ١٨٩، وابن الأثير ٩ ، ٢٥٨ والروض : ٧٦)وتنصّ المصادر على ان ابا عمران توفي سنة ٤٣٠ فلا بد ان يكون هذا اللقاء قد تم حسب رواية صاحب الروض (أي ٤٢٧ او ٤٢٩) .

(٤) هذا النص من الحلل له ما يقابله في المصادر الاخرى مع اختلاف في العبارة وتقارب في الدلالة (انظر الروض : ٨٠ والبكري : ١٦٥) .

... ويشتهرون ، وفينا اقوام على تعليم العلوم يحرصون ، وعلى التفقه في الدين من الله يرغبون ، [فعسى] يا سيدنا تنظر في من يتوجه معي الى بلادنا ليعلمنا ديننا ، فقال له الفقيه: «سوف اجتهد لك في ذلك ان شاء الله تعالى»؛ فعرض الفقيه الامر على الطلبة هنالك ، فلم يجد احداً يوافقه على ذلك ، لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى ، فـدل الفقيه على رجل من فقهاء الغرب الاقصى اسمه واجاج (١) ، فاعطاه كتاباً يوصله اليه يؤكد في الاجتهاد في ذلك عليه . فلما وصل يحيى بن ابراهيم الى اقصى المغرب وجده في موضع يقال له « ملكوس » (٢) واجتمع معه فيه ، واعطاه كتاب الفقيه ابي عمران، فرحب به واكرمه ، وكلمه يحيى بما اراد ان يكلمه ، واعلمه بوصية الفقيه ابي عمران اليه ، وتوكيده عليه ، فاختار له شخصاً يقال له عبد الله بن ياسين، فسار معه الى قبيلة جدالة ، فاجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصاً ما بين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم ويفقههم في دينهم ، فانقادوا له انقياداً عظيماً وواله (٣) في ابتداء الامر تكريماً ، واقاموا معه على ذلك مدة كبيرة ، واجتمع عليه منهم اعداد كثيرة ، الى ان امر عبد الله المذكور لقبائل جدالة بغزو قبايل لمتونة ، فحاربهم جدالة حتى غلبوهم ودخلوا في دعوة عبد الله بن ياسين ، وغزوا معهم سائر قبائل الصحراء وحاربوهم ، فقوي امر جدالة وظهورهم الى ان مات يحيى بن ابراهيم .

وبقي فيهم عبد الله بن ياسين يمتثلون كل ما به يأمرهم منقادين لامره ونهيه، الى ان نقض عليه شخص منهم اسمه الجوهر بن سحيم (٤) شيئاً من احكامه

(١) الحلل : واكاك ؛ وفي نسخة بوجاج (أي يعرف بوجاج) فالاسم واكاك أو وجاج بالجيم المصرية واسم أبيه زلوان (كما في الحلل والروض) وزلوى (في البكري) .
(٢) كذا هو عند البكري أيضاً ، وفي الروض : « نفيس » .
(٣) اقرأ أيضاً : وأولوه .
(٤) سمّاه البكري : الجوهر بن سكّم ، وذكر أن اثنين من قومه شايعاه يقال لأحدهما إيار وللآخر اينتكوا .

وجـد فيها تناقضاً ، فتوافق مع بعض رجال من كبرائهم فعزلوه من الرأي والمشورة ، وقطعوا منه مالهم ، وانتهبوا داره وهدموها ، واخذوا مـا كان فيها ، وخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً منهم .

وكان امير لمتونة يومئذ يحيى بن عمر بن بولنكاين (١) اللمتوني ، فرحل اليه عبد الله المذكور فتلقاه يحيى بن عمر بأحسن قبول من اقباله ، واخذ معه في اموره وأحواله ، فتوجه عبد الله بن ياسين الى شيخه واجاج الذي دخل يحيى ابن ابراهيم الجدالي عليه ، وقيل انه كتب ولم يتوجه بنفسه اليه ، فأعلمه بما جرى في جدالة ، وبيّنَ له امره معهم وحاله ، فشقّ على الشيخ واجاج المذكور ما أعلمه من ذلك فكتب الى بعض أشياخ جدالة يعاتبهم على ما صدر لعبد الله بن ياسين منهم وما بلغه من فعل المشغبين عليه وهو مقيم بينهم وأخذ في ذلك أخذاً كليا عليهم ، وعاتب عتاباً شافياً اليهم ، لكونهم كانوا قد انقادوا اليه، ثم انتقدوا ما شيعه عدوه عليه؛ فلما وصل جواب الشيخ واجاج من أشياخ الجداليين المذكورين ، مستعذرين له على تقصيرهم في حقّ عبد الله بن ياسين ، أمره بالرجوع الى تلك القبايل الصحراوية وكتب لاشياخهم يعلمهم أنّ من خالفه قد خالف الجماعة .

بعض اخبار عبدالله بن ياسين مع لمتونة في ابتداء أمرهم

وذلك انه لما استقر عبد الله بن ياسين عند لمتونة انقادوا له واطاعوه ، واحتال على الذين شاغبوا عليه في جدالة فقتلهم ، وأمر بقتل من استوجب القتل عندهم ، فأجابته بعض القبائل الصحراوية ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به ، وكان اشدهم انقياداً له امير لمتونة يحيى بن عمر ، فكان يخرج معه

(١) البكري : يحيى بن عمر بن تلاجاجين . وفي صبح الأعشى : يحيى بن عمر بن واركوت .

مع قبـائل لمتونة لمحاربة بعض القبائل الذين لم يخرجوا تحت طاعته ، إلى ان نهضوا الى قبيلة لمطة فسألوهم ثلث اموالهم ليطيب لهم الثلثان الباقيان – كذا سنّ لهم عبد الله بن ياسين في الاموال المختلطة – فأجابوه الى ذلـك ودخلوا معهم في دعوته مدة كبيرة ، وتقدم يحيى بن عمر اللمتوني على قبيلة مسوفـة وغيرها .

وكان عبدالله بن ياسين قد دخل بلاد الاندلس في دولة ملوك الطوايف فأقام بها سبعة اعوام ، وحصل فيها على علوم كثيرة ، ثم رجع الى المغرب الاقصى فمر بتامسنا فوجد فيها أمماً لا تحصى اكثرهم تحت أمراء البرغواطة ، وكان عسكر أمراء برغواطة اكثر من ثلاثة آلاف ، وانضاف اليهم من سائر القبائل ، ما بين فارس وراجل ، ازيد من عشرين ألفـاً من جراوة وزغاوة ومطغرة والبرانس وركونة وغيرها .

وكان أهل المغرب يتولون امور بلادهم ، وامراؤهم يتولون الامارة بينهم، الى ان تغلب كلُّ شخص منهم على موضعه ، كما فعل ملوك طوايف الاندلس . فمرّ عبدالله بن ياسين ببـلاد المصامدة بعد مُنْصَرَفه من الأندلس فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون الى طاعة امام . فكان من عبدالله بن ياسين بعض الالهام ان قال لبعضهم : « الا تعرفون الله ربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وازكى السلام » فقالوا له « نعم عرفنا الله ربنا ومحمداً نبينا – صلى الله عليه وسلم – » فقال لهم عبد الله : « فما لـكم بدلتم وغيرتم ؟ هلا قدمتم عليكم اماماً يحكم بينكم بشريعة الاسلام وبسنة النبي عليه السلام ؟ » فقال له بعض أشياخ المصامدة : « لا يرضى احد منا ينقاد الى حـكم احد من غير قبيله » فتركهم ورحل عنهم الى بلاد جزولة فكان من امره مع يحيى بن ابراهيم وجدالة ما تقدم ذكره . ثم رحل من جدالة الى لمتونة فانقادوا له وكان اميرهم يحيى بن عمر أشد انقياداً له كما تقدم ذكره . قال بعض المؤرخين في « المجموع المفترق » وفي كتب غير ذلك : ان بعد الاربعين والاربعماية قامت

قبائل في الصحراء من صنهاجة يعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة وجدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه قبيل غيرهم ، وهذه الثلاثة قبائل في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق وردّ المظالم وقطع المغارم وهم متمسكون بالسنة .

وكان الذي شرع فيهم ذلك ، ودلهم على أرشد المسالك ، عبد الله بن ياسين واول ما اخذت لمتونة من البلاد بلاد درعة . قال ابو عبيد (١) – رحمه الله – وكان للمتونة في قتالهم في ابتـداء امرهم شدة وجلد وليس كذلك لغيرهم ؛ وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف وكان قتالهم على النجب اكثر من الخيل واكثرهم مترجلون على اقدامهم صفوفاً صفاً بعد صف ، يكون بأيدي رجال الصف الاول القنا الطوال ، وكانت لهم راية يقدمونها امام الصفوف فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وان أمالها الى الارض جلسوا فكانوا في ذلك اثبت من الهضاب فمن فر امامهم سلبوه ولم يقتلوه ... ويقتلون الكلاب (٢) ولا يستصحبون شيئاً منهـا في سكناتهم ولا في حركاتهم ؛ وكان يحيى بن عمر يمتثـل امر عبد الله بن ياسين امتثالاً عظيماً ، ولقد اخبر جماعة عنهما ان عبد الله قال له في بعض الحروب: « ايها الامير إن عليك ادباً » فقال له يحيى « وما الذي أوجبه علي » ؟فقال له عبد الله : « لا اخبرك حتى آخذ حق الله بك » فحكمه في نفسه وضربه بالسوط ضربات في رجله ثم قال له « ان الامير لا يدخل القتال بنفسه لان حياته حياة عسكره وهلاكه هو هلاكهم (٣) » .

(١) هو البكري : ١٦٦ وانظر الحلل : ١١ مع اختلاف في ترتيب الجمل ، وما هنا أقرب الى نص البكري .

(٢) في البكري : ومن فرّ أمامهم لم يتبعوه ؛ وهم يقتلون ... الخ .

(٣) هنا توقف النقل عن البكري ، وانظر الروض : ٢٩ .

بعض اخبار الامير أبي زكرياء يحيى بن عمر امير اللمتونيين وسبب تسميتهم بالمرابطين وخروجهم من الصحراء الى سجلماسة ودرعة

كان هذا ابو زكرياء منقاداً في جميع اموره لامامة عبدالله بن ياسين فقدمه بعسكره وعبدالله في مقدمته وهو في الحقيقة الامير الذي يأمر وينهى . وكان يلي لمتونة جبل فيه قبايل من البربر على غير دين الاسلام ، فدعاهم عبدالله بن ياسين الى الدين فامتنعوا له ، فأمر يحيى بن عمر بغزوهم فغزاهم لمتونة ، وسبوهم وقسموا سبيهم بينهم وأخذ اميرهم خمسهم وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم ، وكان قد فقد في ذلك الوقت من عسكرهم اكثر من نصف عددهم ، وكان امامهم عبد الله بن ياسين يصبرهم الى ان ظهروا باعدائهم ، فسماهم عبد الله بالمرابطين ، وسمى اميرهم يحيى بن عمر « أمير الحق » : ووقفت على كتاب قديم ... لما بعث الفقيه ابو محمد عبد الله بن ياسين لاهل هذا الجبل الموالي لبلاد لمتونة يدعوهم للدخول في الاسلام وشريعة محمد – عليه السلام – وان يؤدوا ما فرض الله عليهم من الزكاة فامتنعوا وقتلوا رسله فأمر لمتونة بغزوهم فخرج اليهم وصمد عليهم الجبل وقاتلهم ثلاثة ايام قتالاً ... مات من لمتونة فيه عدد كثير ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ؛ فلما كان في اليوم الرابع جمع عبد الله بن ياسين اصحابه لمتونة وقال لهم « اذا احتسبنا انفسنا في حق الله وسنة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – واراكم قد أعياكم حرب هؤلاء المشركين ولم يأمرنا الله ان نتركهم اذ ... فاستعينوا بالله ربكم ينصركم عليهم ، فخرجت لمتونة في اليوم الرابع وكان ...اسبغ.. وعزم على الحرب فحمي الوطيس بين الفريقين ، واشتدت الحرب الى ان انهزم اعداؤهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً وسلبوا اموالهم وسبوا نساءهم وابناءهم ..

وعادوا الى بلادهم فأمرهم امامهم عبد الله بن ياسين باعطاء الخمس لاميرهم يحيى بن عمر ... واخذوه .

ولما ظهر لعبد الله بن ياسين استقامة لمتونة وجِدُّهم واجتهادهم ، أراد ان يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب ، فقال لهم : « انكم قد غزوتم ونصرتم دين محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد فتحتم ما كان امامكم وستفتحون – ان شاء الله – ما وراءكم »فامرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة واهلها يومئذ تحت طاعة زناتة المغراويين واميرهم مسعود بن وانودين (١) وذلك بعد ما خاطبوهم فلم يجيبوهم الى ما طلبوا منهم فغزوهم في جيش كثيف واكثرهم على النجب (٢) ركباناً ومنهم رجالاً وفرساناً فقاتلهم لمتونة الى ان غلبوهم فطلبوا العفو منهم وادخلوهم سجلماسة فقيل انهم قتلوا مسعود ابن وانودين اميرهم وقيل بل فرّ امامهم واقام بها الامير يحيى بن عمر مدة اشهر مع اخوانه اللمتونيين .

ثم تخلف جماعة منهم ورحل منها مع اخوانه الى الصحراء لاجل جدالة اعدائهم ، وبعد ذلك زحفت زناتة المغراويون على سجلماسة فدخلوها وقتلوا من كان بها من اللمتونيين في المسجد الجامع ، فقيل ان ذلك كان في السنة ست واربعين واربعمائة وقيل في سنة ثمان واربعين .

ثم بعد ذلك ندم اهل سجلماسة على ما فعل مع لمتونة وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين يذكرون ان زناتة المغراويين [زحفوا اليهم] (٣) وانهم هم الذين فعلوا ما فعلوا وقتلوا من قتلوا وطلبوا الوصول اليهم والقدوم ... عليهم ليأخذوا ثأرهم منهم فندب عبد الله بن ياسين اللمتونيين وغيرهم [إلى غزو زناتة ثانية] (٣) فخالفه قبايل جدالة وذهبوا الى الساحل، فأمر عبد الله

---

(١) في الحلل : مسعود بن وانود بن خزرون ؛ وما هنا موافق لما عند البكري .
(٢) البكري : في جيش عدته ثلاثون الف جمل سرج .
(٣) التتمة من البكري .

ابن ياسين امير لمتونة يحيى ان يتحصن في جبلهم وهو جبل غزير الماء والكلا قال ابو عبيد – رحمه الله – [1] : كان في طوله مسيرة ستة ايام وفي عرضه مسيرة يوم واحد وفيه حصن يسمى ازكي [2] حوله نحو من عشرين الف نخلة فصار يحيى بن عمر في ذلك الحصن ، قيل بسبب مرض اصابه ، وقيل غير ذلك .

وكان ابو بكر بن عمر قد تركه اخوه يحيى بن عمر اميراً على بلاد درعة فاجتمع لعبد الله بن ياسين جيش كثيف من لمتونة ومسوفة ولمطة ومزجة [3] وصار بهم الى درعة . ثم بعد ذلك رجعت جيوش جدالة الى يحيى بن عمر : قيل انهم كانوا نحو ثلاثين الفـــاً وأقل منهم ركبان على النجب وبعضهم على الخيل وذلك في سنة ثمان واربعين وقيل سنة تسع ؛ وكان [التقاؤهم] مع لمتونة في موضع معروف عندهم : قتل فيه يحيى بن عمر وقتل فيه بشر كثير [4] وهم يذكرون بزعمهم انهم يسمعون في ذلك الموضع اصوات المؤذنين عند اوقات الصلوات والآن يحترمونه ولا يدخله احد منهم .

ذكر دولة الامير ابي بكر بن عمر اللمتوني - رحمه الله -

وذلك انه لما بلغ الخبر بوفاة اخيه ابي زكرياء ببلاد الصحراء قدمه امامه عبدالله بن ياسين في درعه وتوجه الى سجلماسة واخذ له البيعة من اهلها ؛ ثم وصلها الامير ابو بكر فبويع بهـــا في اوائل شهر محرم مفتتح عام خمسين واربعمائة ، وقيل غير ذلك ، وبايعه فيها بعض الزناتيين على يدي عبد الله بن

(١) المغرب : ١٦٧ .
(٢) البكري : اركى .
(٣) البكري : وترجة ، وفي الحلل : وهزرجة .
(٤) أوجز صاحب الروض في الخبر عن مقتل يحيى فقال : وتوفي الأمير أبو زكريا يحيى بن عمر في جهاد كان له ببلاد السودان .

ياسين وخرج الامير ابو بكر من سجلماسة بعسكره في الثالث عشر الى درعة ليأخذ منهم ما اوجب له عليهم من الزكاة والفطرة؛وكان بدرعة قوم من زناتة فامتنعوا له فقاتلهم الامير ابو بكر وهزمهم وغنم ابلهم ومواشيهم،وولى الامير ابو بكر على بلاد درعة رجلاً من خيار لمتونة وترك معه جمعاً كبيراً وعاد الى سجلماسة ؛ وانصرف ابو محمد عبدالله بن ياسين عنه الى بلاد المصامدة وغيرها حين تذكر ما عاينه من تلك القبائل واحوالهم فخرج من سجلماسة قاصداً الى اغمات فاجتمع بوريكة وهيلانة وهزميرة وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا فوجدهم على ما كان تركهم من الفتنة الفها (؟) فقال لهم : « ألا تعرفون انه من مات منكم في هـــذه الحروب الجاهلية فانه من اهل النار ؟ فوعظهم وقال لهم: « اتقوا الله وارتدعوا عما انتم عليه من فتنتكم وقدموا على انفسكم من يؤلفكم » فقالوا له : « ما هو فينا ... ولا في قبايلنا الا كل قبيلة منا ترى ان يكون الامير منها » فقال لهم:« ان انتم سمعتم مني ادلكم على رأي صالح يصلح الله به احوالكم : هذا امير لمتونة الصحراء اهل الزهـد والورع – وقـــد كانوا سمعوا به – وما اصلح الله من البلاد على يديه » فأنعموا له [وأخذ] عليهم العهود والمواثيق بذلك .

ثم رحل عنهم ورجع الى سجلماسة فتلقاه الأمير ابو بكر بن عمر على مسيرة يوم منها وسر بقدومه عليه ، فبشره عبدالله بن ياسين بما أفاء الله له على يديه، فشكره الامير ابو بكر على ذلك ودعا له بامتداد عمره فقال له ابو محمد عبدالله : « تأهب للحركة اليهم وقدومك المبارك اليهم » فأخذ في غد ذلك اليوم في حركته وولّى على سجلماسة احد اخوانه مع جمع وافر من لمتونة وخرج من سجلماسة في السابع عشر لربيع الآخر من السنة خمسين المذكورة وذلك في عسكر فيه اربع ماية فارس وثمان ماية راكب على النجب والف راجل ، وكان وصولهم الى اغمات وريكة في الثاني لجمادى الاولى من السنة فتلقتهم بعض اشياخ قبائل المصامدة على مرحلتين من اغمات ، فاحتل الامير ابو بكر مدينة اغمـــات واستوكن مع امامه عبدالله بن ياسين فبايعه بعض القبائل بها .

ثم وفدت عليه وفودها فبايعوه ، واقام باغمات مع امامه مـدة من ستة اشهر ؛ فلما كان اول شهر ذي قعدة من العام المؤرخ انصرف عنه امامـه ابو محمد الى بلاد تامسنا فقتله برغواطة في اوائل سنة احدى وخمسين واربع مائة وقال بعض المؤرخين لدولتهم انه توجه في بلاد السوس ليصلح بين اخوتـه جدولة في فتنة فأصابـه مرض فقضى نحبه ووصل نعيه الى اغمات ، واما ما صح عنه فأنـه قتله برغواطة كما تقدم ذكره (١) . ولم يقتل عبدالله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة واعمالها واغمات وبلاد السوس وغيرها .

ومما يذكر (٢) من احوال عبدالله بن ياسين انه سافر مع قوم كانوا معـه فعطش جميعهم فشكوا ذلك اليه فقال : « عسى الله ان يجعل لنا من امرنا فرجاً ومخرجاً » . ثم سار بهم ساعة وقال « احفروا » فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر ، فعدوا ذلك كرامة له ، فشربوا جميعاً وسقوا دوابهم وانصرفوا . وكانت لمتونة لا تقدم احداً منهم للصلاة الا من صلى خلف عبدالله بن ياسين ، وقيل: كان عبدالله نكاحاً للنساء يتزوج في الشهر عدداً منهن ثم يطلقهن،فكان لا يسمع بامرأةٍ حسناء الا خطبها ولا يجاوز بصداقهن اربعة مثاقيل .

واما مـا شذ فيه عبدالله من الاحكام (٣) فأخذه الثلث من الاموال [المختلطة] وزعم أنها بذلك تطيب ، وان الرجل اذا دخـل في دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له:« قد اذنبت ذنوباً كثيرة فيجب ان يقام عليك حدودها » فيضربوه حد الزنا وحد الافتراء ، وان علموا انه قتل قتلوه سواء اتاهم تايباً طايعاً او غلبوا عليه . ومن يتخلف من مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطـاً ومن فاتته ركعة ضرب خمسة اسواط فكان اكثرهم

(١) أسهب صاحب روض القرطاس في وصف حروبه مع برغواطة ومقتله في احدى المعارك متأثراً بجراحه يوم الاحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١ ، ودفن بموضع يقال له كريفلت .

(٢) انظر البكري : ١٦٨ والروض : ٩٦ .

(٣) عقد البكري : ١٦٩ فصلا بهذا العنوان .

يصلون بغير وضوء اذا حان الوقت واعجلهم الأمر من اجل الضرب . ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين ان رجلاً اختصم اليه مع تاجر غريب فقال له التاجر في جوابـه : حاشا لله ان يكون ذلك — فأمر بضربه ؛ ولما مات ابن ياسين وقتله برغواطـة كان الامير ابو بكر بن عمر قد تولى امر صنهاجة وغيرها وطاعت له قبائل المصامدة بأسرها ، فقام معهم لقتال برغواطة حتى أخذ الثار منهم . وفي ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه .

ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية

قال ذوو العلم بأخبارهم ان الجد الذي ينتهي اليه نسب جميعهم هو منصور والجد الذي يفترق منـه افخاذهم ترجوت بن ورتاسن بن منصور بن مصالة بن امية بن وانمالي الصنهاجي (١) ثم اللمتوني. وكانت لترجوت ثلاثة بنين محمد وحميد وابراهيم فتفرقت منهم بطون كثيرة ، وكان القائم بالملك في الصحراء بعد ابيه ابراهيم وهو جد يحيى بن عمر الامير المتقدم ذكره ، وكان يقال له امير الحق وهو يحيى بن عمر بن ابراهيم بن ترجوت ، وكان لأمير الحق يحيى المذكور من الولد اربعة بل ثلاثة محمد وعلي وعيسى وكان لأم محمد نبأ ظريف يأتي ذكره في موضعه ان شاء الله تعالى — واستصحب يحيى بن عمر الامر بقية عمره ؛فلما قضى نحبه ولي الامر بعده أخوه ابو بكر بن عمر وكان يرى في منامه بقرتين يخيَّر فيهما فيضع [يده على] احداهما فيقال له « هذا الذي اخذت هو الملك والذي تركت هو الولد» . وكان له ابنان ابراهيم ويحيى ،فأما يحيى فيعرف بابن عايشة وهي بنت ياران بن تايفشت اخت اسحاق بن ياران ، وأما ابراهيم فلم تعرف امه وكان اسود الجلدة وهو ابراهيم بن الامير ابي بكر بن عمر . واما

(١) الحلل : تورقيت بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن أنحالي الصنهاجي .

فخذ يوسف ابن تاشفين ومن ذكر معهم فهم بنو ابراهيم فهو يوسف بن تاشفين ابن ابراهيم بن تورجوت .

وفي سنة ستين واربع مـــائة استقامت الامور للامير ابي بكر بن عمر وطاعت له البلاد ووجه عماله اليها ، وكان مستوطناً بمدينة اغمات ، وكانت بهـــا امرأة جميلة تعرف بزينب النفزاوية قد شاع ذكرها وامرها في قبايل المصامدة وغيرهـــا ، فكان يخطبها اشياخهم وامراؤهم فتمتنع لهم وتقول : « لا يتزوجني الا من يحكم المغرب كله » فكانوا يرمونها بالحمق ، وكان لها اخبار مستطرفة غريبـــة كمثل اخبار الكهنة ، فبعض يقولون ان الجن يكلمها ، وبعض يقولون هي ساحرة ، وبعض يقولون كاهنة . فألم بجمالها الامير ابو بكر ابن عمر فخطبهـــا وتزوجها فوعدته بمال كبير تخرجه له ، ثم ادخلته في دار تحت الارض معصب العينين ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتاً فيهـــا ذهب كثير وفضة وجواهر ويواقيت ، فعجب من ذلك ابو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة ، فقالت له زوجه زينب : هذا كله مالك ومتاعك اعطاك الله اياه على يدي فصرفته الآن عليك ، وكانت رؤيته له بضوء الشمع ، ثم اخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما ادخلته فيه فلا علم من اين دخل ولا من اين خرج ؛ وكان دخوله معرساً [1] بزينب المذكورة في شهر ذي القعدة من عام ستين واربع مائة . وكانت هذه المرأة موسومة بالجمال والمال وكان لها محاسن وخصال محمودة وروية مستطرفة فقيل – والله اعلم – ان الجنّ كانت تخدمها وقيل غير ذلك كما تقدم .

وفي سنة احدى وستين وأربعمايـــة بعث الامير ابو بكر بن عمر عسكراً كبيراً قدم عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين وبعث معه جملة كبيرة من اشيـــاخ لمتونـــة ومن قبائل البربر المصامدة وغيرهم وذلك برسم قتال رؤساء القبايل القاطنين بأرض المغرب وكان اكبرهم شوكة بني يفران الزناتيين المستوطنين في

(١) في المطبوعة : معرفاً .

قلعة مهدي ابن تبالا [1] . فحاربهم يوسف بن تاشفين بمن كان معه من القبايل التي دخلت في طاعة الامير ابي بكر بن عمر وفر معنصر بن حماد الى مدينة فاس وقتل من اتهم بالقيام بأمر لمتونة وقتل يوسف بن تاشفين اناساً من سدراتة .

وفي هذه السنة [2] ضاق المجمع بمدينة اغمات وريكة عن الخلق فيهـا فشكا اشياخ وريكة وهيلانـــة بذلك الى الامير ابي بكر بن عمر مرة بعد اخرى الى ان قـــال لهم : « عينوا لنا موضعاً أبني فيه مدينة – ان شاء الله تعالى » – وكان سكناه مع اخوانه في الاخبية ... حتى ابتنى بزوجه زينب النفزاوية في هذا العام فزاد الخلق باغمات من اجل ... هيلانة وهزميرة على ان يعينوا موضعاً حيث يكون بناء المدينة ، فوقع التنازع بين المذكورين في ذلك ، وطلب كل واحد ان يكون بناء المدينة في بلادهم لينسب بناؤها اليهم وذلك لأجل ما تقدم بينهما من الفتنة ومداولة الامارة الى ان اجتمعت اشياخ قبايل المصامدة وغيرهم فوقع تدبيرهم ان يكون موضع تلك المدينة بين بـلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك اميرهم ابا بكر بن عمر وقالوا له : « قد نظرنا لك موضع صحراء لا انيس به الا الغزلان والنعام ولا تنبت الا السدر والحنظل » . ثم كان اراد بعضهم ان تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهـم من ذلك وقال : « نحن من اهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنـــا السـكنى على الوادي » فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها ، ودكالة فدانها ، وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها ، فركب الامير ابو بكر في عسكره مع اشياخ القبايل فمشوا معه الى فحص مراكش وهو خلاء لا انيس به فقالوا له : « ابن هنا مدينة تكون متوسطة بين هيلانة وهزميرة » .

وفي سنة اثنتين وستين واربعمائة في الثالث والعشرين لرجب ابتدىء بأساس

(١) سمّاها ابن خلدون (٦ : ١٨٤) قلعة فازاز وسمّى صاحبها مهدي بن توالى .

(٢) انظر الحلل : ٥ .

مراكش وذلـك قصر الحجر ، وشرع الناس في بناء الدور دون سور ؛ وفي ذلك اليوم بعينه كان ركوب الامير ابي بكر بن عمر واخوته وجميع محلته مع اشياخ المصامدة والفعلة من البنائين وغيرهم ، فابتدأ العمل في الاساس بمشاركة الأشياخ وحسب عونهم ، فأعانوا على البناء بالمال والرجال ، فقام سور قصر الحجر في نحو ثلاثة اشهر على نحو ما ذكره ذوو المعرفة والاخبـار ، واشتغل الناس فيها ببناء الديار كل واحد على قدر جهده واستطاعته . فذكروا ان اول دار بنيت بمراكش من ديار لمتونة دار تورزجين بن الحسن الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها وهي الان ظاهرة على المقر بالموضع المذكور الى وقتنا هـذا سنة ست وسبعماية ؛ وذكروا ان اللمتونيين حين طلبوا موضعاً صحراء يبنون فيه مديلتهم ليبعدوا من مواضع الوادي والغياض على أنفسهم ومواشيهم لعادتهم في بلادهم فوقع بحثهم وجدهم واجتهادهم على موضع مدينة مراكش والله اعلم بذلك .

وفي سنة ثلاث وستين واربعماية كان الامير ابو بكر بن عمر قاعداً على السور والفعلة امامه يعملون في السور وفي غيره الى ان وقف عليه رجل راكب على فرس أشعث الرأس فسلم عليه وقال : « ايد الله الامير ان جدالة أغارت على اخوتك فقتلوا الرجال وسلبوا الاموال وهزموهم » . فلما استوفى كلامه قال الامير ابو بكر : « انا لله وانا اليه راجعون » وبعث الى اشياخ لمتونـة وكبرائهم وعظمائهم وقال لهم «ان اخوانـم قد اغارت جدالة عليهم وقتلوهم... وأنا مسافر – ان شاء الله – اليهم لآخـذ بثأرهم فانظروا منكم رجـلا استخلفـه عليكم » .. فأطرق الجميع رؤوسهم وصمتوا ثم رفعوا وبهتوا فلم يكن اجماع على ذلك فقال لهم : «لا بد ان تدبروا من ترونه يصلح لذلك» ثم انصرفوا فلما كان في ... ابو بكر صلى ودعا الله ان يسمي له رجلا صالحاً يستخلفه فهتف بـه هاتف مرعوباً فقال : « من هو هذا الغايب » فأنساه الله ذكر يوسف بن تاشفين الى ان وصل من بلاد المغرب في تلك الايام وحضر بـين يدي ابي بكر بن عمر وهو يعيد القول على اخوته وهي الثالثة

فقال له يوسف بن تاشفين « انا أكون خليفتك ان شاء الله – عز وجل » – فقال له الامير ابو بكر : «صدقت يا يوسف انت والله خليفتي » وتذكر قول الهاتف له فولاه الامر بعده (١) .

ذكر حركة الامير أبي بكر بن عمر الى الصحراء

لما اخذ الامير ابو بكر في الحركة الى الصحراء ولى يوسف مكانه وقسم الجيش بين يوسف وبينه ،فقيل ان الذي ترك مع يوسف بن تاشفين من اللمتونيين الثلث ورحل معه الثلثان (٢) وذلك في غرة ربيع الآخر من سنة ثلاث وستين فشيعه يوسف وودعه وأوصاه ابو بكر فطاوعه . وكان ابو بكر بن عمر لما عزم على حركته تلك قال لزوجه زينب «اني مسافر منك برسم الفتن والحروب ولا يمكنني ان امشي عنك وانت في عصمتي فان أنا متّ كنت مسؤولاً عنك والرأي ان اطلقك » . فقالت له : « الرأي السديد ما تراه» فطلقها فذكروا انه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين « تزوجها فانها امرأة مسعودة » وقيل انها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها بذلك .

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين ونبذ من اخباره

لـما توجه الامير ابو بكر بن عمر الى الصحراء ولاّه مكانه وترك معه الثلث من لمتونة اخوانه فاشتغل ببناء مراكش وتحصينها ، وحصل منها تحت

(١) في الروض : ٩٨ اختلاف واضح عما أورده هنا ، اذ يذهب ابن أبي زرع الى انّ أبا بكر بن عمر هو الذي استدعى يوسف وعقد له على المغرب ، وأن أشياخ المرابطـين اتفقوا على تقديمه لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته ... الخ .

(٢) في الروض ان ابا بكر بن عمر ارتحل بنصف الجيش الى الصحراء .

سور وابواب في قصر الحجر (١) ، وأعانه القبائل في جميع أموره واحواله ، وحبب نفسه اليهم ، وأفاض احسانه عليهم ، وكان يكاتب الامير ابا بكر بكل ما يصنع ، فيشكره على ذلك وابو بكر بن عمر في الصحراء يحارب جدالة حتى أخذ ثأره منهم في خبر طويل . وتزوج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية في شهر شعبان المكرم من سنة ثلاث وستين بعد تمام عدتها ودخل بها فسرت به وسر بها واخبرته انه يملك المغرب كله فبسطت آماله وأصلحت أحواله واعطته الاموال الغزيرة ، فأركبَ (٢) الرجال الكثيرة ، وجمع له القبائل أموالاً عظيمة ، فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد ... بنفسه وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع امسه ، حتى ... سلك اهل المغرب في قانون الضغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت ...

وفي سنة اربع وستين وأربعمائة تحرك الامير يوسف بن تاشفين بعسكر جرار الى بلاد المغرب ... ورجع الى وطاط الى ملوية الى ناحية جراوة ودوخ ما مر عليه من القبايل ودخلت كلها في طاعته ، هكذا ذكر ابن القطان في نظم الجمان .

وفي هذه السنة صنع الامير يوسف بن تاشفين دار السكة بمراكش وضرب فيها السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها درهم وربع سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية ، وهو الدرهم الجوهري المعلوم في وقتنا هذا ، وضرب الدينار الذهبيّ باسم الامير ابي بكر بن عمر في هذا العام .

وفيها ارتدت قبائل في القبلة في جهة سجلماسة من زناتة وغيرهم فجهز اليهم يوسف بن تاشفين عسكراً قوّد عليه محمد بن ابراهيم اللمتوني فخرج في شهر ربيع الآخر وغنم تلك القبايل وقتل المرتدين ورجع بغنائم كثيرة .

(١) الحلل : واشتغل ببناء الحصن المسمى بحصن قصر الحجر برحبة مراكش وحصله تحت سور وأبواب وحصنه .
(٢) في المطبوعة : فركب .

فدون يوسف الدواوين ورتب الاجناد وطاعته البلاد وكتب الى بعض اخوانه في السر من ابي بكر بن عمر يحضهم على الوصول اليه والقدوم عليه ويعدهم بالخير الجزيل الحفيل فوصل منهم جماعة كبيرة .

وفي هذه السنة ولد ليوسف بن تاشفين مولود ذكر سماه المعز بالله من زوجه زينب النفزاوية .

وفيها قوي امر الامير يوسف وعظمت شوكته فاشترى جملة من العبيد السودان وبعث الى الاندلس فابتيع له بها جملة من الاعلاج فأركب الجميع (١) وانتهى عنده منهم شراء ماله مائتان واربعون (٢) فارساً ، ومن العبيد شراء ماله نحو الالفين ، وأركب الجميع فغلظ حجابه وعظم ملكه .

وفيها افترض على اليهود فريضة (٣) ثقيلة في جميع طاعته اجتمع له فيها ماية الف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر الف دينار .

وفي هذه السنة اتصل الخبر بالأمير يوسف ان ابن عمه الامير ابا بكر بن عمر قد أخذ في الرجوع من الصحراء الى بلاد المغرب فاغتم لذلك غماً شديداً وحزن حزناً عظيماً وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته ورتب فيه ما رتب من الأجناد والضخامة ، فعرفت زينب ذلك في وجهه فقالت له: « أراك مهموماً مكروباً من وصول ابن عمّك الى ملكه الذي ولاك عليه ، والله لا ذاق ابو بكر طعمها أبداً،فطب نفساً وقرّ عيناً» فقال لها : «وانه... استخلافه اليّ من بين كلّ بنيه ويثق عليّ فيهذه المملكة ولو كان غير ابن عمي لقاتلته » فقالت له « انا ادلك ... الله » فقال « ما ذلك يا زينب فاني — والله — اعرفك ميمونة » ... قالت له « اذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله اليك فلا تخرج اليه [ولكن] بادره بهدية جليلة ... فلا يقاتلك على

(١) في المطبوعة : فركب ، وفي الحلل « فاشترى جملة من العلوج فأركبهم » .
(٢) في المطبوعة : مائتين وأربعين ، وفي الحلل : مائتان وخمسون .
(٣) في المطبوعة : فرضة .

الدنيا فان الرجل خير لا يستحل سفك دماء ... على امرك وتفوز بملكك — ان شاء الله —» . فقال لها : « والله لا خالفتك في امر تشيرين به ابداً »[1].

وفي سنة خمس وستين واربعماية كان وصول الامير ابي بكر بن عمر مز صحرائه الى مراكش ، فوجد يوسف قد استبد بالملكة واعجبته الامر: وطاعت له جميع البلاد الغربية ، فعلم انه مغلوب عليه ، وعزم على تسلي الامر اليه .

ذكر خلع الامير ابي بكر بن عمر نفسه عن الملك واسلامه ليوسف بن تاشفين

كان وصول ابي بكر بن عمر من الصحراء الى اغمات في الخامس لشه ربيع الاول المبارك في السنة المؤرخة قادماً الى مراكش ، فنزل بخار أغمات في مضاربه ، وتسابق اكثر أصحابه الى مراكش برسم رؤيتها ورؤي بنائها والسلام على اميرها يوسف ، وكانوا قد سمعوا عن ضخامة ملكه وجميل كرامته وجزيل احسانه وانعامه على اخوانه وقرابته ، فاجتمع اليه مز القادمين عليه خلق كثير ، فوصلهم على قدر منازلهم ومراتبهم وأمر له بالكسى الفاخرة والخيول العتيقة وغير ذلك من المبرة والمكرمة ؛ فلما ع الامير ابو بكر أحوالَ يوسف وما هو عليه من الميل الى نخوة الملك وع السلطان عزم على تسليم الأمر له ، وعلم أيضاً يوسف أحوال الأمير أبي بكر من اللين في أمره لتقواه وديانته ، [كما ان يوسف] [2] استمال نفوس اخوا

(١) قال في الروض : ٩٨ « فشاور (يوسف) زوجته في ذلك الأمر فقالت له: يا يوسف ا ابن عمك رجل متورع في سفك الدماء، فاذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع وأظهر له غلظة... ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدية والخلع والثياب والطعام والطرف واستك من ذلك فأنه ببلاد الصحراء، وكل شيء عندهم من هنا مستطرف » .

(٢) زيادة لتوضيح المعنى .

بإحسانه وانعامه وزاد طمعه في الانفراد [1] والاستبداد .

وانقطع رجاء الأمير أبي بكر من الملك ، فبعث الى يوسف يعلمه بوصوله اليه ، وعيّن له يوماً معلوماً يكون فيه اجتماعه به ، فخرج يوسف من مراكش في جنده وعبيده ، وتلقاه في نصف الطريق ، فسلم عليه راكباً على دابته ولم تكن قبل عادته ، ثم نزل الى الأرض وقعدا على برنس بسط لهما في ذلك المكان ، فسمي ذلك الموضع فحص البرنس الى الآن ، وأبو بكر مع ذلك متعجب من كثرة عساكره واحتفال هيئته ، يطيل النظر في ذلك كله ، فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف في مصالح المسلمين ثم قال له : « يا يوسف انت ابن عمي ومحل أخي وانا لا غنى لي عن معاونة اخواننا بالصحراء ، ولم أرَ من يقوم بأمر المغرب غيرك ، ولا أحق به منك ، وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وانت حقيق به وخليق له ، وما وصلت اليك الا لامرتك [2] في بلادك واسلم لك [الأمر وأعود] في [الصحراء] مقر اخواننا وموضع استيطاننا» فدعا له الأمير يوسف وشكر [وقال له : لك عليّ] « ألا اقطع امراً دونك ولا استأثر — ان شاء الله — بشيء عليك » ، وأحضرَ [أشياخ لمتونة] الصحراويين ، وخلع له ابو بكر نفسه ، وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبايل ، وعاد الامير ابو بكر الى اغمات موضع نزوله ورجع يوسف الى مراكش دار مملكته ، فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته فهي التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملك واتمه نصراً على العدو ، ولم يهزم له قط جيش ولا ردت له راية بملك ، والله يؤتي ملكه من يشاء .

(١) في المطبوعة : في الانقداد .

(٢) الحلل : الا لأهدنك .

ذكر الهدية التي اهداها الامير يوسف بن تاشفين الى ابن عمه ابي بكر بن عمر [1]

لما وصل الامير ابو يعقوب الى مراكش بعد اجتماعه بالامير ابي بكر بن عمر وخلعته له نفسه وتقديمه ليوسف وبيعته شرع يوسف في توجيه الهدية المذكورة وذلك خمسة وعشرون الف دينار من الذهب ، وسبعون فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات ، وسبعون سيفاً محلاة ، وعشرون من الاشابر [2] المذهبة ، ومائة وخمسون من البغال والذكور والاناث ، وخدوراً كثيرة بنفيس الامتعة والكسى الفاخرة ، وبعث له عشرين جارية ابكاراً وجملة من خدم الخدمة ووجه له بمائتين من البقر وخمسمائة رأس من الغنم والف ربع من دقيق الدرمق واثني عشر الف خبزة وسبع مائة مد من الشعير وبعث اليه وزناً صالحاً من العود والعنبر والمسك .

وكتب يعتذر له من ذلك ويحلف انه ما بقي له شيء مما ادخره واقتناه فطابت نفس الامير ابي بكر وقال : « خير كثير هذا من يوسف » . ثم انصرف بهديته بعد ما اعطى منها بعض اخوانه وخاصته ؛ وأقام بصحرائه ثلاثة اعوام والامير ابو يعقوب يمده بالتحف والهدايا الى ان قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لانه كان يحاربهم ، حتى قضى الله بوفاته بسهم اصابه كان فيه منيته ، وذلك في سنة ثمان وستين وأربعماية .

وفي سنة ست وستين واربعماية بعث الامير ابو يعقوب مزدلي بن بانلونكا بعسكر ضخم الى ناحية سلا فافتتح تلك القبائل منغير قتال ولا نزال،فأمنهم

(١) انظر الحلل الموشية ١٦ - ١٧ ، وقارن بما هنا فان ما في الحلل اكثر تفصيلا .
(٢) الحلل : المهامز .

وانصرف عنهم في الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر ، وكان خروجه من مراكش في الثاني اشهر صفر ، فكانت غيبته هذه نحو ثلاثة اشهر .

وفيها بعث ايضاً يوسف بن تاشفين عسكراً الى الغرب قوّد عليه يطي بن اسماعيل ولما وصل الى وادي بهت بعث رقاصاً الى امير مكناسة الخير بن خزر الزناتي بأنه قد عفا عنه وبعث كتابه اليه بذلك فقرأ كتابه على زنانة وشاورهم في أمره فقالوا « نقاتله بأجمعنا حتى نخرجه من بلادنا » فقال لهم « لا سبيل لذلك ولا افعله حتى ابعث له » فبعث اليه منغفاد بن عبدالعزيز الزناتي فلما وصل الى يطي بن اسماعيل رحب به واكرمه ولمن كان معه فقال له منغفاد : « نحن رجال الأمير ابي يعقوب وبلادنا بلاده ، غير انا لا بد لنا من الاجتماع به وشروط نشترطها عليه وحينئذ نسلم البلاد اليه ونخرج له عنها» وضمن له اللمتوني ابن اسماعيل تلك الشروط عنه وتعاهد علىذلك معه،ودخل مكناسة وخرج الخير منها اميرها ومن كان معه من زناتة الى موضع القناطير، وولي مكناسة بعد الخير بن خزر الزناتي الافضالُ اللمتوني ، ورحل ابن اسماعيل بعسكره مع الخير المذكور الى مراكش ، وأنعم عليه الأمير يوسف بكل ما أراد ، ثم صرفه فبقى الخير مستوطناً بخارج مكناسة الى ان مات رحمه الله .

ذكر تسمية يوسف بن تاشفين رحمه الله بأمير المسلمين

وفي هذه السنة اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وقالوا له : « انت خليفة الله في المغرب وحقك اكبر من ان تدعى بالامير إلا [1] بأمير المؤمنين ، فقال لهم « حاشا لله ان اتسمى بهذا الاسم ،

(١) الحلل : بل ندعوك .

إنما يتسمى به الخلفاء وانا راجل[١] الخليفة العباسى والقائم بـدعوته في بلاد الغرب» فقالوا له « لا بد من اسم تمتاز به» فقال لهم « يكون أمير المسلمين» فقيل انه هو الذي اختاره لنفسه ، فأمر الكتاب ان يكتبوا بهذا الاسم اذا كتبوا عنه او اليه .

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة افتتح أمير المسلمين يوسف مدينة فاس : وذلك لما افتتح مدينة مكناسة ووصله أميرها الخير وأحسن اليه وأكرمه وخيّره حيث يريد السكنى وأسعفه في كل مطلب ، جهّز أمير المسلمين عسكراً جراراً وقدّم عليه ابن عمه يحيى بن وآسينوا اللمتوني ، وأمره بمنازلة[٢] فاس فكان وصوله اليها عقب رجب الفرد من هذه السنة . وكان امراء فاس يومئذ ابناء حمامة ، فقاتلهم يحيى قتالاً شديداً سبعة أيام ، وفي الثامن دخلها عنوة ، مات فيها من اهل فاس بشر كثير وسلبت ديارهم ثم عفا عنهم وانحصر ابنا حمامة الفتوح ودوناس في قصرهما ، ثم طلبا[٣] الامان فعفي عنهما في نفسيهما ، فكتب بفتح فاس وبأخبار الفتوح بن حمامة واخيه الى الامير يوسف بن تاشفين فأمر بتوجيهها حيث شاء[٤] فاستوصى (؟) الفتوح مغيلة ،واستولت لمتونة على مدينة فاس حرسها الله .

وفي هـذه السنة وصل الخبر الى يوسف بن تاشفين بوفاة الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبيعة الخليفة المقتدر بالله في الثالث عشر لشعبان .

(١) كذا هو في المطبوعة وفي الحلل .

(٢) في المطبوعة : بمنازل .

(٣) في المطبوعة : طلبوا .

(٤) في المطبوعة : شاؤوا .

فتح مدينة تلمسان

وفي سنة ثمان وستين واربعماية جهز امير المسلمين يوسف بن تاشفين عسكراً ضخماً وقدم عليه ابن عمه مزدلي اللمتوني وبعثه الى مدينة تلمسان[١] وكان اميرها يومئذ العباس بن يحيى امير زناتة ، فكتب امير المسلمين اليه كتاباً بالعفو عنه ان نزل دون قتال ، فخرج هذا العسكر من مراكش في أوائل شهر محرم ووصل الى مدينة تلمسان عقب شهر صفر ، فقدم مزدلي الكتب الى العباس بكتاب امير المسلمين فعند وصول الرقّاص بالكتاب اليه وقف عليه ، فخرج من تلمسان فأنعم عليه الامير مزدلي بمطلبه ووافقه في مذهبه ، ورحل الامير مزدلي الى تلمسان ودخلها في مهلة وحال هدنة ثم ولى عليها ابنه يحيى ابن مزدلي ورجع الى مراكش ، فكان وصوله اليها في نصف ربيع الآخر من هذه السنة ومعه العباس صاحب تلمسان فأنعم عليه أمير المسلمين بكلّ خير ، وأمر له بظهائر كريمة وانصرف الى وطنه .

وفي سنة تسع وستين واربعماية وصـل ابراهيم بن ابي بكر بن عمر من الصحراء يطلب ملك أبيه ، فنزل بخارج أغمات في خلق كثير من اخوانه لمتونة ، فسمع بذلك امير المسلمين فبعث اليه الامير مزدلي فقال له « ما الذي تريد يا ابراهيم ؟ » قال : « اطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف » قال مزدلي : « ان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله تعالى قد خصّ هذا الرجل بالملك دوننا ، فان كنت عاقلاً فاطلبْ منه ان يعينك بمال وخيل ترجع بها الى بلدك ، وان طلبت غير هذا اخاف ان يجعل على رجلك قيداً ويحبسك عنده عبداً ، وما قلت لك ذلك الا بوجه الشفقة عليك » فقال له : « يا عمي مزدلي — رضي الله عنك — عسى ان تجتمع معه في امري وتبين له

(١) يجعل ابن خلدون هذه الغزوة سنة ٤٧٢ .

حالي ، وكان الامير مزدلي حسن السياسة صحيح المذهب عارفاً بخدمة الملوك ، فهدن ابراهيم المذكور وقال له : « أقمْ في موضعك حتى آتيك بكل مـا يرضيك » فانصرف عنه ووصل الى الامير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه اليه وانعم الامير يوسف عليه بمال وخيل وكسى وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، واحتمل له ذلك مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وانصرف عنه من هنالك ، ولم يجتمع بالأمير يوسف ولا رآه وانصرف الى الصحراء وبقي بها الى ان مات .

وجرت لأمير المسلمين مع أمير تازى في هذه السنة – وقيل في سنة سبع وستين – حروب شديدة بفحص الوادي هزمه أمير تازى وهو أبو يعلى وكان معه القاسم بن عبدالرحمن بن ابي العافية على لمتونة وذلك بموضع (اجرسيف).

وفي هذه السنة ولد للأمير يوسف بن تاشفين ولده الفضل من زوجه زينب النفزاوية وكانت [أحب] ما لديه ، امرأة غالبة عليه ، ليس ... ولا كان أمر إلا امرها وكان يقول لبني عمه اذا خلا بهم وورد ذكرها : انما فتح [البلاد برأيها] .....[1]

(١) وقـــع في أوراق البيان المغرب هنا خرم كبير ضاعت به أخبار الأحداث بين عامي ٤٦٩ – ٤٩٥ وذلك يشمل بقيـــة فتوحات يوسف في المغرب ، وجوازه الأول الى الأندلس وأخبار معركة الزلاقة (٤٧٩) والجواز الثاني (٤٨١) والثالث (٤٨٣) وسقوط أكثر دول الطوائف ؛ وهذه الأحداث مما يمكن مراجعته في روض القرطاس والحلل الموشية وغيرهمـــا ، وشرحها يطول وليس في الامكان استيفاؤها في هذا المقام ، ولكنا سنذكر في الملحقات بعضاً منها (وخاصة النصوص المتصلة بالزلاّقة) .

أما الخبر عن سقوط بلنسية في يد السيد الكنبيطور فانه من أصل ابن عذاري ، غير أن الأستاذ ميراندا كان قد أسقطه من هذه القطعة لأن ليفي بروفنسال كان قد نشره مستقلاً ، وقد أعدناه الى موضعه اعتماداً على نشرة الأستاذ بروفنسال .

[الكمبيطور في بلنسية]

وكان الطاغية لذريق النصراني ، الملقب بالكَنْبيَطُور قد أخـــذ بمخنق بلنسية وألقى زوْره عليها ، يجبي رعيتها ويستغلها حاضرة وبادية . وقـــد استضعف حفيد ابن ذي النون ، ملكها المشئوم ، وكان اجتلبه ليحترم به ؛ فرمى بسهمه إلى نحره ، فخلعه اللعين وبقي حتى أراد الله بما أراد من حتفه . وكان ايضاً صاحب سرقسطة ابن هود يمير لذريق واصحابه النصارى ، ويعضده بالسلفة ، ويوجه المغيرة يمنة ويسرة ، فكان ما يأتي به الذكر . قال محمد بن علقمة : وفي شعبان من العام ٤٨٥ هـ انتقل الكمبيطور الى سرقسطة ، واستخلف على أطعمته المختزنة وضرائبه المفترضة ببلنسية ، فتنفس مخنق أهلها ، وانفرجت الضيقة عنها .

ثورة القاضي ابن جحاف ببلنسية

ولما ظهر ابن عائشة بمرسية ، وتوالى ظفره بها وبذواتها ، وقع الإصفاق من القاضي أبي أحمد جعفر بن عبدالله بن جحّاف ، وصاحب الأحكام ابن واجب ، وأهل العقد والحل من اهل بلنسية ، على استدعاء محمد بن عائشة ؛ فأنفذ اليهم لمّة من المرابطين تحت نظر ابن نصر ، واتصل النظر بمن ببلنسية ، فنظر أحياء سلطانهم ابن ذي النون في إنفاذ عيالهم وذخائرهم وأموالهم إلى المعاقل والقلاع ، وأخرج حفيد ابن ذي النون بعض عياله الى ابن ياسين قائده على حصن شُبْرُب ، والى ابن حُديدة بحصن العقاب ، وفرّ على وجهـه من فيها من الروم من رجال لُذريق . وخرج القاضي والفقهاء لتلقي ابن نصر ، رسول ابن عائشة وإدخاله البلد ، وفر القادر عن البلد إلى دار هجينة ، ففحص ابن جحّاف عنه إلى أن ظفر عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان .

مقل القادر حفيد ابن ذي النون

لما حصل بيد ابن جحاف ، أمر بقتله ، فتولى ذلك فتى من بني الحديدي زعيم طليطلة ، فقتله بيده كفعله بوليّه ابي بكر بن الحديدي ، وحُمل رأسه على عصا يطاف به الأسواق والسكك . واحتوى ابن جحّاف على ما كان معه ، وطرحت جثته في سبخة، فواراه رجل من التجار : اجتاز به على باب مغطى بحصير خلق ، ودفنه دون كفن .

وتبوّأ ابن جحّاف تبوُّؤ الرياسه، ورتب أرزاق الجند والخدمة واستشعر غلظة الرؤساء ، وأظهر أبهة الملك ، وطمح بصره إلى قضية القاضي محمد ابن إسماعيل بن عباد ، فما حسن النظر، ولا ساعده القدر ، فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء ، والغلمة أمامه ، ويركب فيتقدمه العبيد والطرْد ، ويتأخر عنه الجند ، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء .

وكتب لذريق الكبيطور إلى ابن جحاف المذكور يهنّه على تلك الأمور، وبِ .. بالحسنة التي اكتسبها في رمضانه بقتل سلطانه ، ويطلب منه أطعمته المختزنة عنده ببلنسية . فراجعه الكبيطور ، يقسم بمغلظات الأيمان ألا يبرح من بلنسية حتى يظفر به، ويأخذ ثأر ابن ذي النون منه ، وأنفذ الى الحصون المجاورة يستمد الأقوات فأمده من اتقى شره ، وأقبلت الميرة إلى محلته ؛ واتصل الضرب منها الى بلنسية ، فأضر بها ، وقتل من ظفر به من أهلها . وكان معه جملة من رجال ابن ذي النون .

وفي خلال ذلك ، ألحق ابن جحاف من الجند عدداً ، وأنفذ إليه ابن عائشة بعد ذلك المدد مدداً ، واجتمع له ببلنسية زهاء ثلاثمائة فارس ، وابن جحاف يزداد غلظة وحجبة ، وجيش الروم يراوحهم ويغاديهم ، والحرب تدور عليهم . فمنهم القتلى والجوحى . وأمل الكبيطور إزعاج المرابطين من بلنسية ، وكان ابن جحاف قد استثقلهم ، لكنه يستعملهم ، واستشعروا

ذلك منه . وداخل الكبيطور ابن جحاف في اخراجهم واستبداده بالملك لنفسه ليقيمه معه مقام ابن ذي النون ، يحمي حوزته ، ويقاتل عنه ، فطمع في ذلك .

وفي سنة ٤٨٦ هـ عظُم بلاء الطاغية على بلنسية ، واشتد حالهم ، وعظُم أمرهم . فاستصرخوا أمير المسلمين يوسف ، وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم . فجدّ في أمرهم ، وأمر قواده وعماله على بلاد الأندلس بنصرهم ، فتلاحقت جموع المسلمين بشاطبة، واتصل النبأ بالعدو ، فما برح ، ولا تزحزح . فوصلت الجيوش ومعها من المطوعة خلق كثير خيلاً ورجلاً ، فاستقبلت بلنسية سيراً حثيثاً حتى أشرفت عليها ، واستشرف أهلها عليهم ، واستبشروا بنصرهم والانتقام من عدوهم ، واستنشقوا ريح الحياة . وخرج العدو الى طرف محلته؛ فعبأ الجيش فرقتين وأمر كل فرقة ، فلزمت مصافها . وأوقع الله لما قضاه في قلوب المسلمين النكول عنهم ؛ فرجعوا عودهم فبُهت أهل المدينة ، وسقط في أيديهم ويئسوا من الحياة . واستأسد العدو ، واشتد كلبه ، وأقام يجبي الرعية ويوجه المغيرة ، ويمنع الدخول الى المدينة ، ويعيث في فلّ الفارّ عنها، ومن تحرك من قريته ، أو شُعر بحركته ، يُستبعد أهله وولده . فلم يقدم أحد على التحرك ولا حدث نفسه بالتحول . ولما صدرت جيوش المسلمين الى شاطبة ، بادر الأمير أبو بكر بن ابراهيم إعلام أمير المسلمين .

وفي سنة ٤٨٧ هـ لما انصرف جيش الأمير أبي بكر بن ابراهيم اللمتوني بحكم القدر السابق عن بلنسية ، أيقن من فيها بالهلكة ، وغلب على الناس اليأس ، وضاقت النفوس ؛ وزاد حقد العدو ، وقسا قلبه، وهلك أكثر الناس جوعاً ، وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ، ومن فر الى المحلة فقئت عيناه، أو قطعت يداه ، أو دقت ساقاه ، أو قتل . فرضي الناس بالموت في المدينة ، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافاً لانفساح مدة الحصار . وتضاعف حقد العدو لصبرهم وطلبهم النُّصرة .

ذكر تغلب العدو على بلنسية في هذه السنة

لما بلغ بأهل بلنسية الماءُ الزبى ، وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ، ولا نصر ولا غوث ، ألجأتهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار ، لا بحكم الاختيار . فتجمعوا إلى قاضيهم أبي المطرّف ابن جحاف ، وسفروا إلى الطاغية الكبيطور – لعنه الله – من يتوسط لهم معه أخذ الأمان . فأجاب في هذا الشأن ، وعقد نيته على الختر ، ونقض العهد ، وإعطاء أمان مثله من الأنجاس . فخرج اليه القاضي ، وعقد عليه العقود ، وأخذ المواثيق والعهود، وحزم في كل ذلك ، وبلغ الغاية التي ما بعدها غاية ، ولا وراءها لمجتهد نهاية ، فلما كمل الأمر فتحت له الأبواب ، ودخل المدينة بجملته ، وذلك في جمادى الأولى من هذه السنة فلم يعمل هو وأصحابه – لعنهم الله – ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال، فانتشطت الأنفس من عقال، وانبسطت الآمال ، وأمن الناس . وهو مع ذلك يراعي أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة ، وحصل – لعنه الله – على هذه الحضرة ، ورمى على ما هي عليه من النعمة والنضرة والحسن والبهجة .

واشتد جزع المسلمين بدانية وما اتصل بها من ذلك الصُّقع من القلاع والقواعد ، وكثر شر الغارات من بلنسية عليها، وتوالى الضرب وعظم الضرر، وانقطعت السابلة ، وخافت الطرق ، وصار أهل تلك الجهات في أضيق من العزق ، وقد حميت الفتنة . فخاطب الناس أمير المسلمين مستصرخين معلمين بفساد الشرق ، وإشراف الأمة على الهلكة . فتحرك الى مدينة سبتة، وتقدم أمره الى القبائل باللحاق بها ، وأقام هنالك يجند الأجناد ، ويسرب الأمداد، وجعل تلك الجيوش وأمرها الى نظر ابن أخيه الأمير أبي عبد الله ابن أخي يوسف لأمه ، والأمير أبو بكر هو أيضاً ابن أخي يوسف بن تاشفين لأمه وابن

عمه . وأوعز أمير المسلمين الى صاحب اغرناطة وما والاها أن يمدوه بأنفسهم ورجالهم ، وكتب الى صاحب شنت برية ابن رزين الملقب بالحاجب ، والى الشنياطي – وكان من أنجاد الفرسان ودهاة الحرب – ليجتمعوا مع ابن أخيه لاجتماع الكلمة واتصال المعاضدة والمظاهرة على منازلة العدو ببلنسية .

ولحق الجيش بالأندلس عقب شعبان المكرم ما ينيف على أربعة آلاف فارس ، واضعافها مرات من الرجال . وتحرك من أمر بالحركة الى الاجتماع به. وأقبلت دواب الميرة من كل صُقع ، ونزلت المحلات على فرسخ من بلنسية. فصارت مصراً عظيماً . ورأى الروم بحراً محيطاً ، وهموا بالفرار وإخلاء بلنسية إلا اللعين زعيمهم الكبيطور، فلم يَرُعه في ظاهر الأمر ذلك الجمع ولا عبأ به ، وكانت له في الطير عيافة وزجر، يضيف الى ذلك مخرقة من كذبه، يقوّي بها نفوس أصحابه ، وفي ذلك يقول أحد أهل بلنسية :

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا ... أو نقـّدوه إذا ما طيره زجرا
سيوف صنهاجة في كل معترك ... تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

وعمد اللعين ، عند نزول المحلات عليه ، الى الضعفة من النساء والولدان من المسلمين فأزعجهم الى المحلة ، وقال : « الحقوا بأهل ملتكم ! » ، فوقعن الى أيدي السودان وخدمة الدواب والسفلة من الباعة فغلبوا عليهن وفسقوا بهن ، ولم يُرفع ذلك الى صاحب الجيش ، فيقع التغيير والنهي عن المنكر .

ثم رحلت المحلة الى دانية وغيرها ، فضاع الحزم وانتقض العزم ، وظهر العجز ؛ واختل الجيش ؛ وصاحبه في غفلة عنه ، مغتر بكثرته ، يقدّر أن الجيش بوفره ، ويتهاون بعدوه ، ويحسب أنه مثله على مثله . فبدت العورة ، وأمكنت الفرصة . وكان الكبيطور قد ضاقت نفسه من مقاومة هذا الجمع ؛ فاستجاش الأذفونش ، وشاع ذلك في محلات المسلمين ، فتوجست النفوس ؛ وأشربت خوفه القلوب ، وكانت هذه الأمور ، دواعي لما جره المقدور .

ذكر غدر لذريق اللعين لمحلة المسلمين

ولما رأى لذريق – لعنه الله – ضياع المحلة ، وتفرق الناس عنها في كل وجهة ، اعتبر الغرة وأعمل الحيلة ولم ينتظر النصرة . فركب في بعض خيله ، وكمن البعض ليلاً على مقربة من المحلة ، وخرج صبح تلك الليلة بمن معه في أهبة وعلى تعبئة ؛ والناس في طمأنينة وعلى غفلة . فلما اشتهر من في المحلة ، وقعت الرجة وعلت الصيحة . وركب من بقي من المرتزقة والمطوعة، ولم يبق في المحلة إلا الغلمة ومن لا يدفع عن نفسه. وصممت الخيل الى لذريق المذكور، فاستطرد لهم إلى المدينة ، ونشطوا في أثره ، فاستدرأ بالسور ، ولازمته الجيوش تصيب منه وتظهر عليه فخرجت كائنة إلى المحلة ، فدوختها. وكان الأمير محمد ابن أخي أمير المسلمين شاكياً متخلفاً بها ، فبادر بالخروج عنها. واتصلت بالمسلمين الصيحة بدخول المحلة ، فبهت الناس ، ولم يشكّوا ، لما كان في انفسهم ، أن الأذفونش طرقها . فهام كل على وجهه ، واخذوا في غير طريق ، ومن صمد إلى المحلة ، فرأى النهب فيها ، والخيل تخترقها ، تنكب عنها ، فلم يرجع أحد اليها . وأقبل العدو على النهب ، ولم يتبع الفل ، ورفه عن الخيل لسقوطها من عنده بالضيمة لما لحقها ببلنسية . فلم يعمل سيف ، ولا أريق دم إلا أفذاذ رزقهم الله الشهادة .

واتصل النبأ بإذفونش – يقمه الله – وقد تجاوز في نصف طريقه لنصرة لذريق ، وبلغته هديته من نهب المحلة ، فكره أن يفرق جمعه ويخفق جيشه ، فقصد أرض وادي آش من نظر اغرناطة ، فتردد في جهاتها ، واكتسح ما ألفاه بها ، وحمل جملة من رعيتها المعاهدة لعمارة أرض طليطلة .

واتصل النبأ ايضاً بأمير المسلمين يوسف ، فبلغ منه كل مبلغ ، واشتد غضبه على ابن اخيه لتضييع الحزم وإسلام المحلة دون حرب يقوم به عذر

وانتقلت جيوش المسلمين إلى دانية ، ثم إلى شاطبة فابتدروا بمخاطبة أمير المسلمين معتذرين،فأعرض عن كتبهم وأضرب عن جوابهم . ولما طال إعراض أمير المسلمين عن ابن أخيه ومن معه ، استلطفه ورجع في أمره إلى القضاء والقدر ، فسلّم الأمر لله فيما قضى ، وعاد من العتب والسخط الى الرضى ، وخاطبه بلزوم شاطبة لتشمير العادية ، عن تلك الناحية ، وقطع الطرق إلى بلنسية ، وحضه على الضرب عليها . فبلغ من ذلك ما في وسعه وبذل غاية جهده . ولم يزل أمير المسلمين يمد ابن اخيه بالأموال والرجال إلى أن عظم الجيش وكثف، وضخم أيضاً أمر الفتنة والتعب . وبعد ذلك كتب اليه ، يأمره بالقدوم عليه . وبعث عوضه أبا الحسن علي بن الحاج ، فلحق بشاطبة وانضمت الجيوش عليه . وكانت هدنة على دَخَن !

ذكر حرق القاضي أبي أحمد ابن جحاف
ومحنة أهله وقرابته ومحنة أهل بلنسية .

ولما تمهدت بلنسية للكبيطور –لعنه الله! – بدأ بثقاف قاضيها ابن جحاف وثقاف أهله وقرابته،فعمهم الثقاف، وبلغتهم المحنة ، وجعل يطلبهم بمال حفيد ابن ذي النون . ولم يزل يستخرج ما عندهم حتى استصفى أموالهم واستنفد أحوالهم . فلما لم يترك لهم ظاهراً ولا باطناً ، أمر بإضرام النار ، وسيق القاضي أبو المطرّف ، يرسف في قيوده ، وأهله وبنوه حوله وقد حشر الناس من المسلمين والروم . ثم قال للملأ من المسلمين : « ما جزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم؟ » فصمتوا ، فقال لهم : « جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! » وأمر به وبجملته الى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والروم ، وتضرعوا اليه في ترك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب لهم ، ولا علم بتلك الأمور عندهم ، فأسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة

وترك النساء والصبية . وحُفر للقاضي حفرة ، وأُدخل فيها الى حُجزته ، وسوّي التراب حوله ، وضمت النار اليه . فلما دنت منه ، ولفحت وجهه ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم ضمها الى جسده . فاحترق – رحمه الله تعالى –

ولم يكف غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة، واجتهاده في طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاءً في استمساك البلدة وإبقاء الكلمة .

وعمد الطاغية – لعنه الله – بعد إحراق القاضي – رحمه الله – الى الجلة من أهل بلنسية، فثقّفهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل الناس في المحنة أسوة ، يأخذهم على طبقاتهم ، حتى عمتهم المحنة ، وهلك في ذلك الثقاف كثير منهم – رحمهم الله وجعلها كفارة لهم .

ومما امتحن به أهل بلنسية في هذه السنة المؤرخة الغلاء ، قال محمد بن علقمة : بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمثقال ونصف، ورطل الشعير بمثقال، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ، ورطل الجلد البقري بخمسة دراهم .

وفي ربيع الثاني ، عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جحاف اقتحام الدور فحصاً عن القوت. وأعاه ابن جحاف استصراخ ابن هود ورغّبه في المال والبلد ، مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر .

وانسلخ هذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ، وما سواه تابع له . ولا يصل الى إدراك شيء من الموجود إلا أهل الجاه ، وترمّق سائر

الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفئرة والقطط وجيف بني آدم. وهُجم على نصراني وقع في الحفير،فأخذ باليد ، ووزع لحمه.

وجدّ الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار ، فعبث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم في صوامع الأرباض وبواسق الأشجار .

ودخل جمادى الأولى ، وعدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس . ولم يبق من ذلك الجم إلا نزر يسير. وتوالى اليبس، واستحكم الوباء،وبينما الرجل يمشي، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلا اثنان لابن جحاف وابنه ، واثنان لابن رُتْبَيْر . وباع ابن رتبير فرسه من الجزارين بمائتي مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال ، فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير ، وآخره باثنى عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالاً .

ولما بلغ الأمر الى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسويف والمطل ، اجتمع الناس الى الفقيه ابن الوليد الوَقَّشي في التكلم لابن جحاف . فأخذوا الأمان بشرط التوقف ريثما يستصرخ من بمرسية وصاحب سرقسطة ، وعلى بقاء ابن جحاف على حاله آمناً في نفسه وماله وجميع أهله ، ويُخَلّي اللعين عن المدينة بعد ما قدم عليها ابن عُدَيْس مشرفاً ، وتكون الأبواب بأيدي الروم البلديين الى آخر الشهر المؤجل . وخرج الأرسال في منتصفه ، وهو جمادى الأولى . وفي هذا اليوم وصل القمح ثلاثة مثاقيل للرطل ، ورطل الشعير مثقالين ونصف ، وأوقية الجبن بعشرة دراهم ، وبيضة دجاجة بثمانية دراهم. وبعد ما نفذت الأرسال ، ارتفعت الحرب ، ولان السعر ، والحمد لله . وذلك لما انصرم الأجل ، خرج القاضي الى الكبيطور يوم الخميس منسلخ الشهر المذكور . ثم صار وفتح الباب ، ودخل اللعين الى المدينة مع جملة من رجاله. وصعد جماعة منهم ، فملكوا الأبراج والأبواب ،وتسابق الباعة من موضع المحلة بالخبز والفواكه الى المدينة . وخرج أهل البلد اليها لابتياع القوت منها ،

فتهللت الوجوه ، وانبسطت النفوس ، إلا أهل العقول والنظر في العواقب .

واستمرت المحنة عليهم إلى أن دخل شهر شعبان ، فاتصلت الأنباء أن عساكر المسلمين بمرسية . فأشاع الروم : « إنه متى نزلت علينا محلة المسلمين، أمضينا السيف على أهل بلنسية » ومشى بريحـه : « من وجد عنده شيء من آلات الحديد ، فماله ودمه حـلال ! » فبريء الناس منه حتى من الإبر والمسامير ، ووضعوا ذلك ببـاب القصر ، وقد تضاعف الجزع والخوف . ثم مشى بريحه من الغد بالخروج إلى البحر لجر القطع التي فيه إلى البر، فلما تكامل الناس ، لحق بهم المترجم مع زعماء الروم ، فميزهم ، فمن كان من أهل اليسار صُرف إلى المدينة ، ومن كان من أهل النجدة جُرد ونُفي ، وغلب على الظن أنهم قتلوا ، فكان الحزن في دورهم. واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان ومحلة الأمير محمد بن تاشفين ابن أخي امير المسلمين بقرب المدينـة ، واجتمع على الأمير محمد جميع عساكر المرابطين المغربية والصحراوية ، وجميع عساكر الأندلس . فلحق به تأييد الدولة صاحب لاردة ، وسيد الدولة من طرطوشة، وحسام الدولة من شنت بريّة ، ونظام الدولة من البُونْت ، فكانت أفعالهم ضد ألقابهم ، ولحق الشنياطي من الثغر، وابن ياسين صـاحب شبرب وابن يَمْلُول صاحب حصن الأشرف وغير هؤلاء المذكورين ، واستهل هلال شوال وصلى الناس بمنزل عطاء على ساقية هوارة ، ومن كان بالمدينة من النصـارى المعاهدين يتصنع لمن بها من المسلمين ، ولا شك عندهم في غلبتهم لهم .

وفي الثامن من شوال ، اشاع اللعين أن ابن ردمير (ملك ارغـون) لحق بجملته لنصرته ، فأعمل الحيلة وأخرج جمعاً من الروم ، وأمرهم أن يشغلوا المسلمين بالتناوش ليظنوا أنه الكبيطور ، وخرج هو من حومـة أخرى ، فأجفلوا أمامه ، فأخذ الى المحلة ، فدوختها خيله ؛ واتصل الصراخ بالامـير محمد ، فكر اليها ، ومتى انفض الناس عنه والمحلة تنهب ، فتوقف العدوّ عن الاتباع وأقبل على النهب . ثم رجـع الى المدينة ، فمشى بريحه

باجتماع المسلمين الى القصر ، ثم خرج عليهم ونظر اليهـم وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم وأن ذلك ما أغنى عنهم ، وجعـل ينظر في عطفـه ، ويشمخ بأنفه . ثم قال : « انظروا إلي في سبعمائة الف مثقال ، وإلا هلكتم، وأحلت السيوف عليكم » ثم خرج وبقي المسلمـون في القصر ، وأغلق عليهم الباب ، فصاروا في سجن ، والروم تحفهم بالاسلحـة ، فرأوا الموت ، ووقع البهت ، وخرست الألسنة . ثم رجع اليهودي وزيره اليهم ، وقال لهم: « لم أزل ألاطفه حتى قاطعته عليكم بمائتي الف مثقال فبادروا بتوزيعهـا ، وافدوا أنفسكم منه » فتوزع العدد على الأحوال واشتد ثقاف الاغنياء .

وبلغ اليهودي ـ لعنه الله ـ من المسلمين مبلغ الغايـة في العذاب وسلط اليهود على الاسـلام ، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية ، ومنهم الأمنـاء الموكلون ، والمتصرفون ، وأصحاب الرسوم ، وخدام البر والبحر . وجلس اليهودي للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسوط ، وقيض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل غدو ، فإن جاء بشيء وإلا أخذ بالسوط والعذاب، وتمادت هذه المحنة مدة ، فلا قوة إلا بالله العلي العظيم .

.. رجالين من اجناد رجاله وبقي المستعين بن هود المذكور في محاربة مع الروم الى ان وصل اننه ... ذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر فتح بلنسية وعودها للمسلمين

قال أبو بكر يحيى بن محمد الانصاري : اخبرني ابو عبدالله البوني قال : لما لحق الامير مزدلي ... صدر ذي القعدة من السنة الفارطة نزل بقربة منها ، كما تقدم ذكره ، وكان الروم الذين بالمدينـة قد استصرخوا ملكهم الاكبر اذفونش فت[illegible] اليها بجيش أخشن ؛ فلما كان على فرسخين منها أفرج الامير

مزدلي عنها وصار بمحلته الى قلبيرة (١) فأقام الاذفونش ببلنسية نحو شهر والروم ترومه على التمسك بها ويرغبونه فيها ويهونون عليه امر جيوش المسلمين ، فلما ألحوا عليه خرج بجيوشه لقصد قلبيرة وهو يظهر القصد لأكل الزرع وفساده – يستر استطلاع جيش الامير مزدلي في باطن امره – فتحرك الامير مزدلي لما اتصل به ذلك من هنالك وكتّبَ الكتائب ، وعبأ المواكب في وجه الاذفونش، فظهر لأذفونش من عزمه وصرامته وقوة جأشه ما ظهر. فكانت بين الفريقين مكافحة عظيمة عامة النهار ، [وعند] المغرب [اخذ] الاذفونش في الصَّدَرِ الى بلنسية وجدّ في اخلائها وخرج بجميع من كان فيها من الروم ، واضرمت النار في الجامع والقصر وبعض الدور ، وصدر الامير مزدلي الى بلنسية في شهر رجب فأنقذ الله بلنسية من يد الشرك وملكة الروم وطهرها وصرف اليها نور الاسلام ودين محمد عليه السلام بعد ثمانية أعوام وشهر ونصف وبعد نفوذ القدر السابق في علم الله تعالى ... وهلك من هلك بها ، جعل الله ذلك تمحيصاً لهم وتطهيراً بعزته (٢). ووليها في هلّ ذي الحجة القائد أبو محمد عبدالله بن فاطمة ، ثم استناب فيها ونهض الى سرقسطة فوافاها ثاني عيد النحر مع الف وخمسمائة فارس وذلك لما وصل ولد ابن هود من العدوة بكتاب من أمير المسلمين ، وبعد وصول هذا الكتاب توجه القايد ابو محمد عبدالله بن فاطمة اليها بجيش كثيف من الف وخمسمائة فارس فوفاه ثاني عيد النحر من السنة المؤرخة .

وفي هذه السنة اخذ امير المسلمين في الحركة من حضرته مراكش برسم الجواز الى الأندلس ... المرسوم بالانوار الجليلة فلما جاز ... ثم صدر الى اغرناطة [وعقد عليها] للقائد علي بن الحاج وجمع اعلام المرابطين والرؤساء

(١) هي Cullera وتقع الى الجنوب من بلنسية ولعل الأصوب أن يقال فيها « قليبرة » .

(٢) ذكر ابن بسام في الذخيرة (القسم الثالث ، الورقة : ٣٢) أن استرداد بلنسية كان في شهر رمضان سنة ٤٩٥ .

الأندلسيين في حال البيعة [لابنه عليّ] . ووجه احمد بن هود المقتدر بالله (١) ابنه عبد الملك المدعو عماد الدولة من روطة (٢) الى قرطبة بهدية جليلة منها اربعة عشر ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط وفرقها ليلة عيد النحر في طبقات المرابطين ؛ [وفي ذلك الوقت عقد البيعة لولده علي بن يوسف] (٣) وحضر العهد (٤) عبد الملك ابن المستعين بن هود ، وكتبه ابو بكر بن القصيرة (٥) .

وفي هذه السنة توفي ملك شنتمرية (٦) من ثغر الأندلس الملقب بذي الرياستين حسام الدولة (٧) وكانت رياستهم في هذا القطر من سنة احدى واربعين واربعماية اولهم مؤيد الدولة هذيل بن خلف بن ازحن (٨) ثار بها ودام ملكه فيها الى ان مات : ثم قام بعده اخوه عبد الملك الى ان مات [ثم وليَ ابنه هذيل] (٩) ثم ثار بعده ابنه ذو الرياستين هذا حسام الدولة وتمادى ملكه بها الى ان مات في هذه السنة وولي بعده ابنه (١٠) مدة يسيرة وصار امره الى امر الامير يوسف .

(١) الصواب : المستعين بالله وهو حفيد المقتدر بالله ؛ وخبر هذه الهدية في أعمال الاعلام : ١٧٤ وفي الحلة ٢ : ٢٤٨ .

(٢) روطة (Rueda) من مدن الثغر الأعلى ، كانت تابعة لسرقسطة .

(٣) زيادة من أعمال الاعلام : ١٧٤ .

(٤) في المطبوعة : البيعة .

(٥) في الحلل الموشية نصّ هذا العهد ، ويذكر أن الذي كتبه هو الوزير الفقيه أبو محمد ابن عبد الغفور (ص : ٦٣) .

(٦) هي شنتمرية الشرق او سهلة بني رزين Santa Maria de Albarracin وهي في كورة شنتبرية Santaver في الثغر الأوسط ، وتقع على أحد فروع نهر تاجه .

(٧) انظر ترجمة عبد الملك بن هذيل في الحلة السيراء ٢ : ١٠٨ وهو عند ابن الأبار يلقب بحسام الدولة .

(٨) في الحلة السيراء : بن خلف بن لب بن رزين .

(٩) زيادة من الحلة يصحّ بها السياق .

(١٠) سماه ابن الأبار : يحيى ، قال : وعليه انقرض ملكهم .

وفي سنة سبع وتسعين واربعماية اخذ يوسف بن تاشفين في الحركة الى حضرة مراكش من بلاد الاندلس لما كمل امر البيعة لابنه علي وضبط احوالها وتقديم عمال للنظر في اشغال التحرك ، صار الى العدوة وأوعز الى ابي الحسن علي بن الحاج عامله على اغرناطة في النهوض الى شرق الاندلس واستحثه في السير ، فلحق به كتابه وهو على مقربة من الجزيرة الخضراء ... بامتثال امره ووصل علي بن الحاج الى بلنسية في شهر صفر . الامير يوسف في ... كتب اليه جوابه في محلة مضاربه واقام علي ابن الحاج ببلنسية الى شهر رمضان فورده ... الخبر عن منازلة اذفونش بن فرذلند مدينة سالم فتوجه بحملة وافرة من الخيل والرجال ... فلما احتل بقلعة ايوب استمد القايد الاعلى ابا محمد عبدالله بن فاطمة فبادر اليه ... تفاوض فاجتمع الرأي على غزو بلاد العدو فلحقا مدينة طليطلة من ... سرقسطة .. المحلة واتصل بالحل والترحال فوافوا مدينة طلبيرة فخرج منها ... والحرب تدور على الدوام وبأحرة أحلت .. الامير علي بن الحاج رحمه الله ... فيه طرف المعترك ميتاً بدرعه وسلاحه ... ولا ضربة ... الى تطيلة فدفن في قبلي جامعها وانصرف...قاهراً ومالاً وافراً ، فاقتفى اثر ابيه وسلك سبيله في عضد الحق وانصاف المظلوم ... الظالم وأمن الخايف وسد الثغور ونكاية العدو فلم يرم السداد في اعماله ، والتوفيق في حسن اعماله ، وكان اخصّ الناس به ابو محمد عبدالله بن اسباط فجعله المترجم عن بيانه ، وأقامه في الاوصيةَ مقام لسانه ، وناط به الآمال ، وأوطأ عقبَه جماهيرَ الرجال .

وفي سنة ثمان وتسعين شاع الخبر بالاندلس بمرض الامير يوسف واستيلاء الآلام عليه ، وخاض فيه اهل الدولة الذين يستنبطون الغوائل ، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق ، واتصلت الاخبار بالطاغية اذفونش على غير صورتها ، وجلبت لديه في غير معرضها ، وصوّرَ عنده ان بلاد المسلمين من الرجال قد خلت ، ومن الحماة وذوي النجدة قد تفرغت ، وظنّ انه من هذا الحادث قد اضطربت الامور ، وانحل نظام التدبير ، فخرج الاعداء في زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة

فتوغلوا في نظر اشبيلية حتى وصلوا الى موضع يعرف بقاطع ، فغنم من تلك القرى الغنائم الموفورة والاسلاب الكثيرة ، وخرج ابو محمد سير من اشبيلية وتحصن في حصن هنالك ، وتلاحقت به أجناده وامداده ، وبقي هناك مرتقباً لورود ابي عبد الله ابن الحاج بعسكر اغرناطة الى ان استوفت العساكر فهرب جميع الكفرة وولوا امامهم فارين مهزومين ، وبلغ المسلمون الشفاء من القتل فيهم ، وكاد السيف يستأصلهم ويفنيهم ، وصحّ بعد هذا الفتح الجليل أن الذي قتل منهم الف وخمسمائة .

وفي هذه السنة تناهى القحط في بلاد الاندلس والعدوة حتى ايقن الناس بالهلاك .

وفي سنة تسع وتسعين تزيّدت بالامير يوسف علته التي قبض منها .

وفيها صدر الامير تميم عائداً من شرق الاندلس ووصل مراكش بسبب ذلك (١)

وفيها عزل موسى ابن الحاج عن اغرناطة ووليها ابو بكر بن ابراهيم اللمتوني .

وفيها قرىء باشبيلية كتاب نفذ من ولي العهد بتأخير القاضي ابن [منظور]

وفي هذه السنة خرجت سبعون قطعة من البحر الغربي وقصدت بيت المقدس فلما توسطت البحر [هبت] عليها ريح فرقتها واغرقتها فلم يرجع شيء منها وكفى اللهَ المسلمين شرها .

وفيها ظهر نجم منظور الضوء طويل الذؤابة ... كأنها طيرة المجرة تمادى نحو ثلاثة اشهر .

وفي سنة خمسمائة استأثر الله امير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى وذلك يوم الاثنين مستهل شهر المحرم من السنة (٢) .

(١) يعني بسبب اشتداد المرض على أبيه .
(٢) في الحلل الموشية : ٦٧ « وقد مات في شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٠» .

بعض اخباره على الجملة

... كان خائفاً لربه كتوماً لسره كثير الدعاء والاستخارة مقبلا على الصلاة ، [يأكل من عمل][1] يده ... اكثر عقابه كان الاعتقال الطويل إلا من انتزى وشق العصا «فالسيف احسم لانتشار الداء» .

كنيته : ابو يعقوب .

ديناره تبر في احدى صفحتيه : « لا إله الا الله محمد رسول الله . » وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » . وفي الدائر : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » الآية . وفي الصفحة الاخرى اسم امير المؤمنين العباسي .

عنوان كتبه : من امير المسلمين وناصر الدين الى فلان .

وكان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الامور اليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم ، وولع بالاختصار في ملبسه ، وما زال الى أن لقي الله مجدّاً في الامور ملقناً للصواب فيها مستصحباً حال الجدّ مؤدياً الى الرعية حقها من الذب عنها والغلظة على عدوها وافاضة للأمن والعدل فيها، ويرى صور الامور على حقيقتها ، وكان معظماً مهوباً لا يخلد الى راتبة ولا يسكن الى دعة .

نسبه : هو يوسف بن تاشفين بن ترجوت بن ورتانطن بن منصور بن مصالة ابن امينة ابن وانمالي الصنهاجي ، وقد ذكر الهمداني في كتاب «الاكليل» ان صنهاجة من ولد عبد شمس بن وايل بن حمير ، واجتمعت الروايات ان صنهاجة من حمير .

(١) زيادة من الحلل .

وطوى الدهر امير المسلمين يوسف فاسترجع ما وهب ، وقبض وهو على أوله في الحزم والعزم لنصر الدين واظهار الكلمة وعضد الاسلام ، وقد امتدحه الشعراء في حركاته وغزواته وصدوره ووروده فأجزل لهم العطاء ، ورثاه جماعة منهم ابو بكر بن سوار[1] من جملة مراثيه وانشدها على قبره :

ملك الملوك وما تركتَ لعامل ... عملاً من التقوى يشاركُ فيه
يا يوسفٌ ما أنت الا يوسف ... والكلُّ يعقوبٌ بما نطويه
اسمع أميرَ المؤمنين وناصرَ الـ ... ـدين الذي بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التي ... لم ترضَ فيها غيرَ ما يرضيه
اما مساعيك الكرام فانها ... خرجت عن التكييف[2] والتشبيه
في كل عام غزوة مبرورةٌ ... تردي عديدَ الروم او تفنيه
تصل الجهاد الى الجهاد موفقاً ... حتم القضاءِ بكلٌ ما تقضيه
ونجيُّ ما دبرته كنجيّه ... فكأنٌ كل مغيّبٍ تدريه
متواضعاً لله تظهر دينه ... في كل ما تبديه أو تخفيه
ولقد ملكتَ بحقك الدنيا وكم ... ملك الملوكُ الأمر بالتمويه
لو رامت الأيامُ ان تحصي الذي ... فعلت سيوفك لم تكن تحصيه
انا لمفجوعون منك بواحد ... جمعت خصال الخلق أجمع فيه
واذا سمعت حمامةً في أيكةٍ ... تبكي الهديلَ فانها ترثيه
ومضى قد استرعى رعيّته ابنَه ... فأقام فيهم حقٌ مسترعيه
واذا هزبر الغاب ضرّى شبله ... في الغاب كان الشبل شبلَ أبيه
واذا (عليّ) كان وارث ملكه ... فالسهم مُلقىً في يَدَيْ باريه[3]

(١) محمد بن سوار الاشبوني ابو بكر ، أسره الروم بمدينة قورية مدة من الزمن ثم فداه أحد بني عشرة أعيان سلا فأكثر من مدائحه فيهم (الذخيرة القسم الثاني : ٣١١ والمغرب ١ : ٤١١) وقصيدته في رثاء يوسف وردت في الذخيرة : ٣٢٢ .
(٢) الذخيرة : التحديد .
(٣) هذا البيت لم يرد في الذخيرة .

ذكر دولة امير المسلمين علي بن يوسف

ولما استأثر الله بامير المسلمين يوسف بن تاشفين وصى الامر الى ولده ولي عهده علي أمير المسلمين ، فاضطلع أبرع اضطلاع ، وقام احمد مقام ، وألبسه الله المهابة ، وقذف له في القلوب المحبة ، فاجتمعت عليه الامة ،واتفقت الكلمة ، وبعد مواراة ابيه خرج ويده في يد اخيه ابى الطاهر تميم [على] قبايل المرابطين والمصموديين وغيرهم من زعماء القبايل ورؤسائهم ، فنعياه اليهم ، وجدد ابو الطاهر بيعة اخيه واخذ الحاضرين بذلك فاستتب الامر ، وبادر الامير ابو الطاهر الى مكناسة بالجيش والامير يحيى ابن ابي بكر بفاس والامير مزدلي بتلمسان ، وكان الامير سير ابن ابي بكر في طاعة اشبيلية ، ولحق الامير ابو بكر ابن ابراهيم بغرناطة في ربيع الاول من هذه السنة . وقصده زعماء الاقطار مهنئة وامتدحته الشعراء فوهب الهبات لهم ؛ وكان خروجه من غرناطة في رجب العام المذكور .

ذكر حركة امير المسلمين علي بن يوسف من مراكش الى الاندلس

وتحرك امير المسلمين علي بن يوسف من حضرة مراكش مع جيوش المرابطين والمصموديين والجنود والحشود يوم الجواز الى بلاد الاندلس لتفقد اهلها وسد خللها ، وأغذّ السير الى ان وصل الى مدينة سبتة وجاز البحر منها الى الجزيرة الخضراء ، فبادر اليه قضاة الاندلس وفقهاؤها وزعماؤها ورؤساؤها وادباؤها وشعراؤها ، فامتدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء وقضى لمن كان ذا ارب اربه ، وسنّى لكل ذي مطلب مطلبه ، فولّى اخاه ابا الطاهر تميماً أغرناطة ، وولّى ابا عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني قرطبة ، وبقي محمد بن الحاج

تحت الخمول (١) الى ان ولاه بعد ذلك مدينة فاس ثم نقله الى بلنسية في سنة ثلاث . قال ابن الصيرفي : وجرت في هذا العام أحداث ، ذكر في كتاب « تقصّي الأنباء في سياسة الرؤساء » : وفي هذا العام انبرى ابو العلاء بن زهر (٢) الى مطالبة القاضي ابن منظور باشبيلية وخبر ذلك ان ابن زهر اعتلّ فذكر ذلك للقاضي فقال : « وطبيب ماهر يمرض !! » فنهيَ ذلك الى الوزير أبي العلاء ابن زهر فحرّك منه وقال :

ان ابن منظور تعجب هازلاً لما مرضتُ فقلت : يعثر من مشى
قد كان جالينوس يمرض دائماً (٣) فمن الفقيه (٤) المرتضى أكل الرشا

فأنفذ امير المسلمين عليّ اليه كتاب عزلته .

ولما كملت اشغال حاز بها الاندلس [؟] ... امورها وعمت البيعة دانيها وقاصيها صدر الأمير علي بن يوسف الى سبتة وادي مشيه في ... الى حضرته مراكش .

وفي سنة احدى وخمسمائة ورد الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بغرناطة والياً عليها فاطمأنت النفوس وهجدت العيون ... بملكته وظهر به جمال دولته ، ونظر الأمير أبو الطاهر في أسباب الغزو وأحسن إلى الجند وخرج منسلخ شعبان المكرم من العام ، فلما احتل الجيش مدينة جيان تلوم بها الامير ابو الطاهر أياماً حتى وفدت عليه الجيوش والعساكر من قرطبة وغيرها

---

(١) قد وضح ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي : ١٣٣ سبب هذا الخمول ، فذكر أن محمد بن الحاج كان والياً على قرطبة ، فلما ولي علي بن يوسف الامارة بعد أبيه رام ابن الحاج القيام عليه ودفع إمرته وتلكأ في بيعته ، ومالأه الملأ من أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها سنة ٥٠٠ ،فقبض عليه ونكب وفسد تدبيره ثم رضي عنه علي بن يوسف وولاه مدينة فاس وأعمالها.

(٢) هو أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، حظي في أيام المرابطين وكان قد اشتغل بالطبّ منذ أيام المعتضد حتى أصبح من البارزين فيه (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٤)

(٣) ابن أبي أصيبعة : بمرض دهره .

(٤) في المطبوعة : فمن الامام .

واستقبل على حصن أقليش (١)، فاضطربت الحلات بازائه وانتشرت الحروب عليه الى ان دخله عنوة وامتنع اهـله في قصبته والحروب محدقة به ، وفي خلال ذلك وصل اليه ولد اذفونش شانجه - من زوج المأمون . التي كانت تنصرت (٢) - بنحو سبعة آلاف فارس فكانت بينه وبين جيوش المسلمين حروب يطول ذكرها كانت الدائرة فيها على الروم ، مات فيها شانجه بن الفنش أخزاهما الله، ورجع الامير أبو الطاهر الى اغرناطة . قال ابن الصيرفي: فكان ذلك دليلَ اليمن والبركة بولاية علي بن يوسف في أول دولته وكانت الوقعة على الروم وموت شانجه المذكور في ... شوال . وفي آخر هذا العام مات أذفونش لعنه الله تعالى .

بعض اخبار الاذفونش ملك قشتالة اخزاه الله

قال الراوية : هلك طاغية الروم الاعظم اذفونش بن فرذلند بطليطلة في شهر ذي الحجة من عام اثنين وخمسماية وكان ملكه نيفاً على خمسين سنة بأشهر وهو اذفونش بن فرذلند بن غرسية بن شانجه بركه (٣) وكان لغرسية بن شانجه بركه ثلاثة اولاد غرسية وفرذلند وردمير قال ابو بكر بن عبد الرحمن: كان غرسية اشجع اخوته وقتله اخوه فرذلند في حرب كان بينهما وترك ابنين قام احدهما بالملك وهو شانجه وخرج الآخر الى بلاد الاسلام وهو الفنت الذي احرق جامع البيرة وقتل لعنه الله بروطة بسبب يطول شرحه هنا ويقولون في اسم الفنت (٤) الهنت يصرفون الفاء هاء في النطق ، ومعناه عندهم ابن الملك ،

(١) أقليش (Ucles) في كورة شنتبرية ؛ وعندها المعركة المشهورة التي انتصر فيهـا أبو الطاهر تميم سنة ٥٠٢ ، انظر تفصيل الخبر عنها في روض القرطاس : ١١٨ ونظم الجمان : ٥ وما بعدها ، ومقالة للاستاذ هويسي ميراندا عن المعركة بمجلة تطوان ١٩٥٧ .

(٢) المأمون ابن المعتمد بن عباد وزوجه هي زائدة (انظر الاسلام في المغرب والاندلس) .

(٣) Sancho Abarca

(٤) Infante

كما عند الفرس سابور ؛ وهلك غرسية بن شانجه بركه وقد قسم البلاد بين بنيه واختص فرذلند وردمير بملكه مناصفة، ولم يكن لردمير من الولد الا شانجه: فلما قتله المقتدر بالله بن هود في الحرب التي كانت بينهما قام بالملك بعده شانجة وحده فلمـا هلك ترك ابنين بطرة واذفونش المصروع على أفراغه بما افضى الى هلكه .

ولمـا اشرف فرذلند على الهلك ايضاً قسم بلاده (١) بين اولاده شانجة واذفونش وغرسية فخص شانجة بملك برغوش (٢) وقشتالة وما حولها من المدن وخص اذفونش بليون وما حولها من المدن وخص غرسية بغليسية وبرتغـال ففسد ما بين شانجة واذفونش وكانت بينهما حرب أتت على أكبر رجالهما ، ثم ظفر شانجة بأخيه اذفونش فأسره وحبسه مصفدا عنده في قشتالة مدة ثم حل اعتقاله ونفاه عن بلاده فلحق بالمأمون بن ذي النون بطليطلة وبقي عنده مدة كانت سبباً لتطلعه على احوالها حتى استولى بعد ذلك عليها وقد تقدم ذكره فيه . وكانت لشانجة واذفونش أخت يقال لها أرّاكة (٣) تميل الى أخيهـا اذفونش فداخلت بعض رجال اخيها شانجه على قتله ، وخرج شانجة يتصيد في [لمة] من خيـله وفي جملته الداخل في قتله ، وتسابقت تلك الخيل الجري فأجرى ذلك الفارس وبيده رمح معدة ، فلما قرب من شانجه طعنه فقتله ، ومر على غلوائه الى حصن سمورة وبه أرّاكة اختها فاعتصم بهـا ... الدعوة بالاذفونش وانفـذ فيه ، فلحق للحين ، وانفرد بالملك . فلما استوسق امره قتل قاتل اخيه وقال بلغته: «عمل جيد وعادة سوء». ويذكر ان اذفونش بن فرذلند لعنه الله زنى بأخته أرّاكة فجمع بين النصرانية والمجوسيـة ثم طلب الى أحبـار دينه المغفرة مما واقعه فحملوه على قصد الكنائس الفاضلة والتعبد - أخزاهم الله ولعنهم - ؛ ثم فسد مـا بين اذفونش وغرسية فكانت بينهما

(١) انظر أعمال الأعلام : ٣٢٩ وما بعدها .

(٢) Burgos

(٣) Urraca

حرب أسر فيهـا ادفونش لأخيه غرسية فحبسه ثم دس عليه من قتله . . في محبسه وانفرد في مملكته الى ان توفي هذه السنة المؤرخة .

وفي هـــذه السنة فسد صلح المستعين بالله احمد بن هود مع الروم وعادت الفتنة بينه وبينهم على ما اذكر بعضه .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة تحرك امير المسلمين علي بن يوسف من مراكش الى الاندلس برسم الغزو والجهـــاد وفتح مدينة طلبيرة (١) وذلك أنه لما تمهدت المملكة لعلي بن يوسف ببلاد المغرب تحرك الى الاندلس فأجاز البحر ويمـــم أغرناطة وتلوّم بها ريثما اجازت العساكر العدوية والحشود والمطوعة وتأهبت الجيوش الاندلسية ، ثم تحرك الى قرطبة وأقام بها أياماً ومشى البريح باعياد، ولحقته الجيوش والاجناد ، وتحرك منها الى مدينة طلبيرة فنزل عليها ثم دخلها ووقع النهب والسبي فيها واعتصم الروم في قصبتها وأجارهم الليـــل فرموا بأنفسهم في النهر وتسربوا بين المحلات فأفلتوا وامتلأت ايدي المسلمين بالسقط والثياب والماشية والاسلحة ، وطهر الجامع وردّ على الهيئة المسلمة ورجع به حرامه واقامة الصلوات ومحا الله منه الكفر ، وندب لها امير المسلمين الخيل والرجال والرماة وقوّد عليهم احد المرابطين ورحل الامير عليّ عن طلبيرة ، فاستقبل طليطلة فأناخت محلته عليها ثلاثة ايام ... الضيقة... وساءت ظنون اهلها مع ما هي عليه طليطلة من الحصانة والمنعة [ودامت] عليها الحرب يوم الخميس والجمعـة والسبت وأخذت الجيوش في القفول يوم الجمعة وانقضى امر هذه الحركة في اربعين يوماً فصدر علي بن يوسف وقد دوخ تلك البلاد ولم يعهد في ذلك الوقت مثل هذه الغزوة قوة وظهوراً وعدة ووفوراً ونكايـــة في العدو وبقي رعبه في الروم .

---

(١) عين ابن القطان تاريخ هذه المعركة، اذ ذكر أن علياً بلغ طلبيرة يوم الخميس الثالث عشر من المحرم سنة ٥٠٣ أي ١٢ أغسطس سنة ١١٠٩ (انظر ص ١٣) .

ومن أخبار المستعين ابن هود في هذه السنة

قال الراوية : نزل المستعين أحمد بن هود حصن روطة الى مدينة سرقسطة فجدد البيعة عن اهلها لنفسه ولابنه بولاية عهده ، فلما كمل له من تجديد البيعة أمله عزم على الغزو على بلاد الروم المجاورين له ، فجمع وحشد وسار في جيش دَهْم وتحرك في شهر جمادى الآخرة فاجتاز بمدينة تطيلة ودخل منهـا على أرنبة (١) فغلب على أرباضها ، واعتصم اهلها منه بكنيسة منيعـــة (٢) ، ثم صالحهم (٣) على مال يؤدونه اليه (٤) أخذ به رهائن منهم ، ثم انصرف قافلا عنهم ، وشن في صدره الغارات على من بذلك الصقع من الروم وهدم وحرق وقتل وسبى وعاد الى بلاده فلما شارف بلاد الاسلام لحقتـــه خيل الروم المتألفة من البلاد في أول يوم من رجب الفرد (٥) فاجتلدوا أحرّ جلد ، وصبر الفريقان وطال الضرب ، واستشهـــد المستعين بن هود وانفض الجمع والحم السيف ... على كثير من المسلمين ، كرمهم الله بالشهادة اجمعين .

وولي عبدالملك الملقب عمادالدولة بعد استشهاد أبيه وبايعه الناس بسرقسطة بعد ما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم ؛ واتصل بعبد الله بن فاطمة موت المستعين فطمع في سرقسطة وتحرك اليها وذلك على نحو شهر واحد من الوقعة، فلما انتهى الى مقربة منها وجه اليه اهلها ان ينصرف عنهم ولا يبدأ الفتنة مع المبايع له خشية استصراخه بالروم فيعود الحرب على الأول ثم بعد ذلك لم يفِ عمادالدولة ابن المستعين بالشرط الذي ألزمه نفسه من طرح الروم وتركهم ، فعزم على مداخلتهم ، وفهم منه ذلك أهل سرقسطة فاستدعوا

---

(١) كذا ولعل صوابه « أرنيط » كما هو في أعمال الاعلام .

(٢) في اعمال الاعلام : عتيقة .

(٣) في المطبوعة : صلح .

(٤) في المطبوعة يوردرن . والتصويب عن اعمال الاعلام .

(٥) من عام ٥٠٣ - ٢٤ يناير ١١١٠

الأمير محمد بن الحاج صاحب بلنسية من قبل امير المرابطين معوضاً به من الأمير عبدالله ابن فاطمة الوالي على غرناطة ، فوافاها صبيحـة يوم السبت العاشر من ذي القعدة ففتحت له الأبواب ، ففتحها واضطربت المحلة في الشريعة منها ، ودخل المرابطون سرقسطة وتقدم اهلها لمحمد بن الحاج ، فدخل الجعفرية وصار القصر المذكور في ملكه تحت ثقافـه ، فجرى ابن المستعين على سيرة ابيه وصانع اذفونش ابن ردمير فاستجابه ووافاه بحصن تطيلة ، ومحمد بن الحـاج بالجيش في تلك الناحيـة . ثم انصرف الى سرقسطة وتقدم ابن ردمير حتى كان منها على فرسخين فابتدر ابن الحاج الى حرمه وأمر النـاسَ بالخروج اليه للمحربة ، وترتب الناس على هيئة الأهبة والرتبة عامة يومهم ، وبآخرهِ أخلوا مراكزهم وتسللوا الى المدينة ، فظهر الخلل والتسلل ، وانتهز ابن ردمير الفرصة وقسم جيشه فرقتين وصدمت احداها ابن الحـاج وصدمت الاخرى ابنه ابا يحيى فتفرق الناس عنه واستشهد هناك (١) وفقد في تلك الواقعة جملة من المسلـمين وذلك عشية يوم الاحد منتصف شهر ذي الحجة من السنة المؤرخة .

تلخيص التعريف بتاريخ من ملك سرقسطة وبعض اخبار البلاد الشرقية من بني هود رحمهم الله الى هذه السنة

كان استيلاء المستعين سليمان بن هود الجذامي على طاعـة منذر بن يحيى وتغلبه على شرق الاندلس في ذي الحجة من سنة ست وثلاثين واربعمائة وكان هذا المستعين صاحب مدينة لاردة وبَلغَي (٢) واجتمع ذلك الثغر كله سرقسطة وتطيلة وقلعـة ايوب ودروقة ووشقة وبربشتر ولاردة وبلغي ومدينة سالم ووادي الحجارة الى ان توفي في سنة ثمان وثلاثين واربعمائة . فولى ابنه المقتدر

(١) يجب ان نفهم هنا ان بن عذاري يشير الى استشهاد ابي يحيى لا محمد بن الحاج إذ أنه سيعود الى ذكر محمد بن الحاج في الفقرة التالية في حوادث سنة ٥٠٤ وما بعدها .

(٢) في الأصل : وبلقى ، وهي Balaguer وتكتب في المصادر الاخرى مضبوطة بالغين.

بالله احمد بن سليمان بن هود في سنة ثمان المذكورة ، وتوفي سنة اربع وسبعين واربعمائة وكانت مدة ولايته ستاً وثلاثين سنة ، وولي ابنه المؤتمن سنة اربع المذكورة ، وتوفي سنة ثمان وسبعين واربعمائة وكانت مدته أربعة أعوام . وولي بعده المستعين بن هود المقتول في ملحمة يوم الاثنين مستهل رجب من السنة ثلاث وخمسمائة المؤرخة . وولي عماد الدولة احمد بن احمد المستعين ابن المؤتمن بن احمد المقتدر بن سليمان المستعين بالله بن هود الجذامي في غرة رجب من هذه السنة واخرجه اهـل سرقسطة كما تقدم ذكره في يوم السبت العاشر من ذي القعدة ودخلها عامل علي بن يوسف .

وفي سنة اربع وخمسمائة استقر محمـد بن الحاج بسرقسطة وابن ردمير يساجله الحرب والظهور عليه وعبد الملك بن المستعين معه في جيوش تعضل بها الارض ، فنزل على نحو فرسخ من المدينة ومحمـد بن الحاج يناوشه الحرب صباحاً ومساء الى ان لحق ابو عبدالله بن عايشة الوالي على مرسية من قبل امير المسلمين علي بن يوسف بعسكرية مرسية والطاغية ابن ردمير صادر الى بلاده والعساكر المسلمة في أثره ، ولم تزل بعد ذلك الحرب متصلة والمضارب مترددة وغزوات محمد بن الحاج متوالية الى ان توجه علي بن كنفاط اللمتوني بعسكر من المرابطين في جهة قلعة أيوب فنازل حصناً من حصون ابن المستعين وضيق عليه وأخذ بمخنقه ، فلما نال منه الضغطة استصرخ اهله بابن المستعين صاحبهم ، فوجه اليه مدداً من الروم شفى أمره حتى دخل الحصن وخرج منه ليلاً على المحلة والناس على طمأنينة فتغلب العدو على المحلة وأسر أميرهم ابن كنفاط ، وصدر المدد الرومي به الى روطة فبقي في اعتقال ابن المستعين مـدة ثم خلّى سبيله فكان مهادنة ثم كانت حرب ، والحرب سجال والنفوس آجال .

وفي هـذه السنة خرج الامير ابو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين عن اغرناطة وولي مدينة تلمسان واستقر بها .

وفي سنة خمس وخمسمائة ولى أمير المسلمين علي بن يوسف الأمير مزدلي على مدينة قرطبة واغرناطة والمرية وما انتظم معها من الحصون والقرى .

وفي شهر صفر منها قام المنصور بن سير بن مسلمة الشهير بابن الأفطس من أرض النصرانية الى مدينة اشبيلية فصمم منها الى حضرة امير المسلمين فكانت له منزلة لطيفة ومكانة رفيعة .

وفيها خرج عماد الدولة من مدينة روطة برسم محاربة سرقسطة فخرج اليه واليها محمد بن الحاج بعسكرها فحاربه ثم بعد منه .

وفي سنة ست وخمسمائة غزا الامير مزدلي بعساكره ومن انضاف اليه قاعدة وادي الحجارة بأرض الروم واكتسح ما حولها وضيق عليها ثم صدر الى قرطبة بغنائمه .

وفيها أغري بالامير مزدلي عند امير المسلمين فاقتضى نظره ايفاد مشيخته من المرابطين لثقاف ... ما الى نظر الامير مزدلي من بلاد الاندلس وكان لأبي علي بن...حثيث المسعى والقدح المعلى ، واتصل النبأ بهفبادر الى امير المسلمين ولما اجتمع به جلا عن نفسه فارتفع الظن وحصحص الحق ... الى طاعته على أكرم حال وأتم آمال .

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الامير سير بن ابي بكر الوالي على مدينة اشبيلية بتقديم امير المسلمين يوسف بن تاشفين، وذلك في شهر رجب من عام اربعة وثمانين،وكانت وفاته في شهر جمادى الاولى من هذه السنة بموضع يعرف باغرنات على مقربة من اشبيلية، خرج زافاً لنفسه فاطمة الى امير المسلمين علي ابن يوسف ومشيعاً لزوجه حواء بنت تاشفين؛وكان هذا تاشفين أخو يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه لانهلما مات تاشفين والد يوسف دخل مكانه أخوه علي. فخرجت حواء واختها من اشبيلية فلم يعهد مثل ذلك اليوم لهواً وكثرة ونعماً، خرج فيه الجم الغفير الى مضارب المحلة بعين العلو فلما جن الليل نزل بالامير سير بن ابي بكر بن تاشفين مغص تزيد عليه حتى قضى رحمه الله عند انصداع

الفجر فشهد جنازته بشر عظيم [١] .

وكانت هذه الحرة حواء [٢] اديبة شاعرة جليلة ماهرة : اخبر ابو عبدالله محمد بن سعيد الخزرجي في كتابه ، قال : حدثني ابو محمد بن جلون عن شيخه ابي عبد الله بن زرقون وكان شيخه مالك بن وهيب قال:أمرت الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتبة والشعراء كانت تحاضرهم فيه وكانت ذات نباهة وخطر فاجتمع يوما في ذلك المجلس جماعة منهم ابن القصيرة وابن المرخي ، وهذا لقب له لأنه يقال كان له فتور على فصاحته ، وحضر غيرهما فلما غصّ المجلس اقبلت الحرة تريدهم وهم يتحادثون ويأخذون في الشعر ، وكان ابن المرخي قد قال صدر بيت وهو « انا للبدر أخ » ولم يجزه احد منهم ، إذ أقبلت الحرة فسلمت عليهم وبادرها ابن المرخي وقال لها : «حياك الله يا قمري ويا زهري » فقالت : « وصفتني والله بآفل وذابل » ففرح بفطنتها فقالت له « فيم كنتم » قال لها : « كنا قد قلنا صدر بيت ولم يقدر احد على عجزه » فقالت : « انشدنيه » فقال : « انا للبدر أخٌ » فقالت على البديهة : « على ذا سنخ » (؟) فتعجب الحاضرون من براعتها .

وفي هذه السنة خرج الامير مزدلي من حضرة مراكش الى الاندلس وولاه علي بن يوسف على مدينة قرطبة واغرناطة فاجاز البحر للاندلس الى مدينة اشبيلية فاستمد ... الأمير سير بن ابي بكر اللمتوني فأمدّه بعسكر ضخم من المرابطين والحشم وغيرهم ، وانضم اليهم عسكر قرطبة واغرناطة ولمة من العدوة ولفيف من المطوعة خيلاً ورجلاً فعظم الجيش ، وأمّ به الامير مزدلي ارض طليطلة فدوخها واكتسح به أوديتها وأبلغ في نكايتها وصدر الى قرطبة

---

(١) كان سير بن أبي بكر من أشهر قواد المرابطين ، وهو الذي احتل اشبيلية من بني عباد ، وفتح بعدها قرمونة ولبلة ، وشهد الحصار على حصن لييط ثم أزال دولة بني الأفطس واستولى على بطليوس سنة ٤٨٧ وظل والياً على اشبيلية مدة سبع وعشرين سنة .

(٢) للأعمى التطيلي الشاعر الوشاح قصائد في مدح الحرة حواء زوجة سير بن أبي بكر (انظر ديوانه) وقد ترجم لها القاضي ابن عبد الملك في القسم الخاص بالنساء من الذيل والتكملة .

ظافراً ظاهراً على عدوه [1]

وفي هذه السنة خرج لروم الارض الكبيرة نحو خمس مائة قطعة تحمل مائة الف مقاتل فيهم الف وخمسمائة فارس وخمسون الفاً من الرماة فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية اغرقتهم فلم تبق منهم باقية وأتت مع ذلك مراكب الحاج وجمله مشحونة بالأطعمة .

وفي هذه السنة صرف القاضي ابو مروان الباجي عن قضاء اشبيلية وقدم ابو عبدالله بن داود ، ثم نقل الى فاس ، وولي القضاء ابو مروان الباجي ثم صرف ، وولي ابو محمد عبدالله بن سمجون فنقل الى غرناطة ، وولي بعده ابو القاسم بن ورد ثم صرف وولي بعده الفقيه الخطيب المقري [ابو الحسن] شريح بن شريح ثم صرف ، وولي الفقيه ابو بكر بن العربي — رحمهم الله اجمعين - وكانت ولاية ابن العربي المتأخر منهم في سنة ثمان وعشرين وخمسماية.

قال ابن حمادة : وكان يوسف بن تاشفين أمر القاضي محمد بن عيسى ببنيان جامع سبتة وزاد فيه حتى أشرف على البحر ، وكان بنيانه عام احد وتسعين وقبل بناء الجامع بأعوام أمر يوسف بن تاشفين ببناء سور الميناء السفلي بسبتة على يد القاضي ابراهيم بن احمد

وقام على يوسف بن تاشفين في هذه السنة رجل يعرف يعرف بابن الزنر بجاري وادعى انه ابن معنصر الزناتي الذي كان صاحب فاس ببلاد غمارة ، فتوجه اليه يوسف وقتل خلقاً من أصحابه ثم اعطى غمارة مالاً فغدروه وأتوا اليه برأسه . وقام عليه ايضاً ماخوخ الزناتي بناحية تلمسان واختط بلداً لنفسه فخرج اليه يوسف وفرّ امامه وخرج من بلاده .

(١) تذكر المصادر الاسبانية انه فتح في هذه الوقعة حصن « اوريخا » (انظر مجلة تطوان ١٩٥٨ : ١٦٢) .

ذكر حرق الاحياء وما قال ابو حامد حين بلغه ذلك

قال ابن القطان في نظم الجمان [1] : أمر علي بن يوسف باجماع قاضي قرطبة ابن حمدين وفقهائها على حرق كتاب الأحياء فأحرق على الباب الغربي من رحبة المسجد بجلوده بعد اشباعه زيتاً بمحضر جماعة من اعيان الناس ووجه الى جميع بلاده يأمر باحراقه وتوالى الاحراق على ما اشتري منه ببلاد الغرب في ذلك الوقت فكان إحراقه له سبباً لزوال ملكهم وانتشار سلكهم ، وكان المتلقب بالمهدي في بلاد المشرق يومئذ ، فذكر ابن القطان في السفر الثالث عشر من كتاب نظم الجمان : ورحل المهدي من بلاد اقصى المغرب الى الاندلس في سنة خمسمائة فدخل قرطبة ثم وصل الى المرية فدخل في مركب الى الشرق فغاب فيه الى ان وصل مراكش سنة اربع عشرة . وذكر ابن القطان ايضاً عن عبدالله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس من اثبت في مدرسة ابي حامد فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف ودخل للمدرسة وحياها بالركعتين ثم دخل الى الشيخ أبي حامد فسلم عليه فقال : « ممن الرجل » ؟ فقال : « من أهل المغرب الأقصى » . فقال له : « دخلت قرطبة » ؟ قال: « نعم » . قال : « فما فعل فقهاؤها » ؟ قال: «في خير». قال: «هل انتهى اليهم كتاب الاحياء » ؟قال: نعم. قال: «فماذا

(١) انظر ص : ١٤ وما بعدها ، وقصة حرق كتاب الاحياء وردت في الحلل : ٨٥ ، وهناك رسالة صادرة عن تاشفين بن علي الى امير بلنسية يحيى بن علي بن الحاج والفقيه القاضي ابي محمد بن جحاف تاريخها سنة ٥٣٨ وقد جاء فيها : « ومتى عثرتم على كتاب بدعة او صاحب بدعة وخاصة وفقكم الله كتب أبي حامد الغزالي فليتتبع أثرها وليقطع بالحرق المتتابع خبرها » (نصوص سياسية ـ مجلة المعهد ٣ : ١١٣) وهذا تاريخ متأخر ، ولكن وفاة ابن حمدين كانت سنة ٥٠٨ ، فاذا صحّ ذلك فلا بد أن يكون الامر بالحرق قد صدر أولاً أيام علي بن يوسف . وقد ذكر ابن الابار (المعجم : ٢٧١ ـ ٢٧٢) أن أبا الحسن البرجي استنكر حرقها وأفتى بتاديب من يفعل ذلك ، وأبو الحسن هذا توفي سنة ٥٠٩ .

قالوا فيه ؟ فألزم الرجل الصمت حياءً منه فعزم عليه ليقولن ما طرأ فأخبره باحراقه وبالقصة كما جرت . قال : فتغير وجه الشيخ ابي حامد ومد يده الى الدعاء والطلبة يؤمنون فقال : « اللهم مزّق ملكهم كما مزّقوه واذهب دعوتهم كما حرقوه » فقام المهدي فقال : « ايها الامام ادع الله تعالى ان يجعل ذلك على يدي » فتغافل عنه ابو حامد فلما كان بعد وقت إذا بشيخ آخر على شكل الاول فقال له ابو حامد فاخبره بالخبر المتقدم فتغير ودعا بمثل دعائه الاول فقال له المهدي : « على يدي » فقال له : « على يديك » فقبل الله دعاءه .

وفي سنة ثمان وخمسمائة توفي الامير مزدلي [1] الوالي على قرطبة في شوال غازياً على مقربة من حصن مسطاسة صرف به الى قرطبة فوصل به يوم الاربعاء ثاني يوم وفاته وصلى عليه اثر صلاة العصر الفقيه القاضي ابو القاسم بن حمدين .

نسبه : هو مزدلي بن بوبلنكان بن حسن بن محمد بن تورجوت : قال ابن الصيرفي لم ازل اطلب نسب لمتونة حتى لم أجد منه الا ان الجد الذي تفترق منه افخادهم ترجوت .

وفي هذه السنة توفي الكاتب الجليل ابو بكر ابن القصيرة الذي اشتملت عليه الدول الثلاث العبادية المعتمدية والدولة اليوسفية وهذه الدولة العلوية بعد خطوب اصارته طريداً وقطعت منه وريداً [2] .

وفي هذه السنة اتصل الخبر بأمير المسلمين علي بن يوسف وهو بحضرته

(١) كان ابو محمد مزدلي بن سولنكان (أو بوبلنكان أو ملنكان) من أكابر المرابطين ، وهو ابن عم امير المسلمين يوسف بن تاشفين وله جهود كبيرة في الدور الأول من التاريخ المرابطي قبل دخول الأندلس ، وهو الذي استولى على بلنسية ٤٩٤ ؛ ثم تولى تلمسان سنة ٤٩٧ وفي سنة ٥٠٠ عين على قرطبة وغرناطة والمرية وبقية أخباره في الاندلس أوردها ابن عذاري في الفقرات السابقة .

(٢) انظر هذه العبارة في ترجمة ابن القصيرة في قلائد العقيان : ١٠٤.

مراكش عن وفاة الامير مزدلي فسد خللاً من مصابه ودفع [رزء] فقده بابنيه فولى الامير عبدالله بن مزدلي من مراكش وورد اغرناطة آخر ذي القعدة وتحرك الامير محمد فاحتل ايضاً بقرطبة واستقر بها وضبط امورها واحوالها.

وفي سنة تسع وخمس مائة ضرب العدو على نظر قرطبة فخرج اليه محمد ابن مزدلي بعسكره وبادر في الاستعجال لأثره فلحق بالعدو ونشبت الحرب وصبر المسلمون فاستشهد محمد بن مزدلي والامير محمد بن الحاج [1] والامير ابو اسحق بن دانية والامير ابو بكر بن واسينوا ومات [من] الامراء نحو الثمانين من وجوه المرابطين وجملة كبيرة من الحشم واهل الاندلس وذلك يوم الخميس مستهل صفر من السنة المؤرخة ، فكان مصاباً عظيماً وخطباً جسيماً واتصل الخبر بأمير المسلمين علي فولى قرطبة الامير ابا بكر يحيى بن تاشفين وهو ابن عمه شقيق ابيه لأمه فنفذ اليها وقدم عليها؛ ولأيام من وصوله اكتسح العدو الاول صاحب الجولة على قرطبة فلحقه بجهة بياسة ولحق الصريخ بالامير عبدالله بن مزدلي صاحب اغرناطة فبادر في اثره وتتابع الجيش مغذّاً فلحق به على مقربة فكانت للروم ايضاً ، واستشهد خلق من المسلمين كرمهم الله بالشهادة في اعلى عليين، وذلك يوم الاربعاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفي هذه السنة توفي محمد ابن الحاج صاحب سرقسطة شهيداً واتصل الخبر بأمير المسلمين فأنفذ ولاية سرقسطة للامير ابي بكر ابن ابي يحيى ابراهيم [2]

(١) ذكر ابن الابار (المعجم : ١٣٤) أن محمد بن الحاج استشهد بالمرضع المعروف بالبورت وتفسيره بالعربية « الباب » وذلك سنة ٥٠٨ ، فابن الأبار قد عرفنا اسم الوقعة التي هلك فيها كثير من المرابطين ولكنه يجعلها بجهة برشلونة .

(٢) هو المشهور بابن تيفلويت تزوج من أخت علي بن يوسف ، وولاه غرناطة أولاً ثم سرقسطة ، ولأبن خفاجة فيه مدائح وكان وزيره الحكيم ابن باجة في سرقسطة ، وكان مثلاً في الجود والشجاعة ، استسلم في سرقسطة الى ترف الملك وانهمك في اللذات ، وتوفي سنة ٥١٠ (الاحاطة ١ : ٤١٢ - ٤١٧).

وكان مقيماً بها فتولى الامر فيه وأخذ بالعزم والحزم وثقف امور المملكة ونظر في مصالح الرعية .

وفي هذه السنة عوض عبدالله بن فاطمة عن ولاية فاس بولاية مدينة اشبيلية فاستقر بها في اول السنة المؤرخة .

وفي سنة عشر وخمس مابة تحرك الامير ابو بكر صاحب سرقسطة الى الغزو فقصد حصن روطة فأحرق وبالغ في النكاية ، ثم تحرك الى برجه وبها عماد الدولة بن المستعين بن هود فضيق عليها وبالغ في نكايتها حتى صالحه أهلها ورجع عنها الى مدينة سرقسطة .

وفي هذه السنة قدم امير المسلمين محمد بن ميمون قائد الاسطول البحري فكان له غزوات مشهورة وامور مذكورة .

وفي هذه السنة (١) أمر صاحب المهدية علي بن يحيى بن تميم بإعداد الأساطيل وعمارتها الى جزيرة جربة ، فساروا في جمادى الاولى وحاصرها وأخذوا بمخنق أهلها الى أن أقروا (٢) بالطاعة له وسلموا لأمره ونزلوا على حكمه ، فانصرف الأسطول عنها وصلح أمر البحر في هذه السنة .

وفيها أرجف العوام بأنه سيكون في شهر رمضان خطب عظيم وحادث كبير وقطع على الدولة شديد وان السلطان سيموت فيه ، وفشا القول بذلك فيهم وانتشر ، فأكذب الله قولهم وعطل إرجافهم وعملت الشعراء في ذلك وقد تكون اصابتهم فيها ايضاً كما حدثنا ابو الصلت قال : حدثني ابو محمد عبدالعزيز ابن الامام احد خواص الامير ابي القاسم محمد بن عباد قال : كنت في عسكر الامير أبي القاسم عند وجهه مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب الأقصى الى لقاء اذفونش بن فرذلند ملك جليقية اول غزوة غزاها المرابطون بالاندلس ، وكان الناس ينزلون بنزوله ويرحلون برحيله

(١) انظر ابن ابي دينار : ٨٨ ورحلة التجاني : ١٢٥ .
(٢) في المطبوعة : أمروا .

تقريباً ورعياً لمكانه من السن وعظم القدر ووفور العدد وجودة الرأي، قال: فسمعنا طبوله تضرب وقيل امير المسلمين يتقدم الى العدو فأمر الأمير أبوالقاسم منجمه بتحقيق طالع الوقت والنظر فيه ، قال : فوجده بحسب ما تقتضيه أصول هذه الصناعة دالاً على ان الدايرة تكون على المسلمين وان النصر والغلب للمشركين ، قال : فأشفق من ذلك وكره إعلام يوسف لنفاره من الاستدلال بالنجوم والعمل بها ، ولم يمكنه غير مساعدته والانتقال معه ، فبينما هو يحاول ذلك إذ خفتت الاصوات وهدأت الضجة وجاء من أخبر ان يوسف قد بدا له في الانتقال من هنا ، فلما كان بعد ساعات من ذلك اليوم بعينه عادت الاصوات وضربت الطبول ، فأمر الأمير ابو القاسم منجمه بأخذ طالع الوقت والنظر فيه فوجده اوفق طالع واسعد نصبة وأدلها على ان الظفر للمسلمين والدايرة المشركين حسب ما جرى الأمر عليه ، قال فتعجب من ذلك ومن قوة سعادة يوسف ، وقال: وهذا من المصنوع لهم المعتنى بأمرهم الملثمين الى رشدهم الذين ... لهم التوفيق ويخدمهم [السعد] وذلك كله بمشيئة الله تعالى وسابق علمه ونافذ حكمه .

وكتب امير المسلمين علي بن يوسف من مراكش في هذه السنة الى ابي محمد بن فاطمة كتاباً يحضه فيه على اقامة الحق اذكر الآن منه بعض فصول : « وقد رأينا والله ولي التوفيق، والهادي الى سواء الطريق،ان نجدد عهدنا الى عمالنا بالتزام احكام الحق وايثار اسباب الرفق لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل ، والله تعالى ييسرنا لما يرضيه في قول وعمل بقوته . وانت أعزك الله ممن يستغني باشارة التذكرة ، ويكتفي بلمحتها التبصرة ، لما تأوي اليه من السياسة والتجربة ، فاتخذ الحق امامك ، وملّك يده زمامك واجر عليه في القوي والضعيف احكامك ، وارفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولا تسدّ في وجه المضطر المظلوم بابك ، ووطىء للرعية – حاطها الله – اكنافك ، وابذل لها انصافك ، واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها ، واطرح كلّ من يحيف عليه ويؤذيها ، ومن تثبت عليه من عمالك زيادة ، أو

خرق في أمرها عادة ، أو غيّر رسماً ، او بدل حكماً ، او أخـــذ لنفسه درهماً ظلماً ، فاعزله عن عمله وعاقبه في بدنه وألزمه ردّ ما أخذ تعدياً الى اهله ، واجعله نكالا لغيره ، حتى لا يقدم احد منهم على مثل فعله ، ان شاء الله تعالى ، وهو ولي تسديدك ، والمليّ بعضدك وتأييدك ، لا إله إلا هو عليه توكلت » وهو من انشاء ابن الجد رحمه الله .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة تحرك امير المسلمـــين علي بن يوسف من حضرته مراكش الى بلاد الاندلس فأجاز البحر في أواخر محرم ويمم اشبيلية ريثما استتب امر الغزو ولحقت العساكر العدوية ، وتأهبت العساكر الاندلسية ولحقت من قرطبة لمة من الفقهاء والعلماء ولفيف من المجاهدين الزعمـــاء خيلا ورجلا ، وتأهب فقهاء اشبيلية ومجاهدوها ، واستوفت مطوعة غرناطـــة ومرتبوها ، ثم تحرك امير المسلمين بجميع العساكر من اشبيلية لغزو قلمورية (١) فحاصرها عشرين يوماً وضيق بها ثم انصرف عنها الى اشبيلية ومشى عبدالله ابن فاطمة والمنصور بن الافطس فقابلا ارواما في بـــلاد الروم ثم وردا الى اشبيلية واستاقا غنيمة عظيمة واسرى كثيرة وانصرف الناس الى بلادهم .

وأنفذ امير المسلمين علي بولاية ابن الوليد بن رشد خطة القضاء بقرطبة .
ومدح الشعراء لأمير المسلمين فمن ذلك لأبي العباس التطيلي (٢) من قصيدة طويلة (٣) .

اركب اذا دارت رحاها وانزلِ — وقل اذا صم صداها وافعلِ
واقتصّ واستوفِ وهبْ فاحتفل — وابلغ بأدنى السعي أقصى الأمل
في عمر الشعر وسير المثـــل — ورتبة الوسطى من العقد العلي

(١) قلمورية أو قلمرية (Coimbra) وهي تعني حينئذ مملكة البرتغال ، ويقول صاحب الحلل الموشية ان علي بن يوسف فتحها يعني مدينة قلمرية ولكن يفهم من المصادر الاسبانيـة انه لم يستطع فتحها (تطوان « ١٩٥٨ » : ١٦٩) .
(٢) في المطبوعة : السلمي .
(٣) وردت هذه الارجوزة (لا القصيدة) في ديوان الأعمى التطيلي : ١٤٧ .

وجهــك بالإحسان والحسن ملي — وأنت للدنيـــا وللدين ولي
نيطت بك الآمال فاقطع وصل — وهـــذه الدنيا فولّ واعزل

وفي هذه السنة ورد كتاب علي بن يوسف بولاية موسى بن حمـــاد قضاء اغرناطة ، وفيها قدم باشبيلية لخطة القضاء ابو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني عن اصفاق من اهل بلده ، وفيها ولي محمد بن سعيد قضاء المرية .

وفيها فسد ما بين الزهري وابن زهر ، من الصداقة والصهر ، ورمى كل واحد صاحبه بقاصمة الظهر ، وبادر ابن زهر بمخاطبة علي بن يوسف فبادر اليه الزهري او ذلك بنفسه فتكلم في ابن زهر ملء فيـــه ، فأمر الزهري بسكنى مراكش ، ثم ورد ابن زهر بعد ذلك اليها وقد أظلم له البيّر وصعب عليه الليّن فتلقى من أمره ما أصدره ... ولم يسمح له بالوصول ، وكان قبل في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدولة ، يولى من قبـــله حاكم يحكم من حاشيته ، وصاحب المدينة من توليته ، وشهود البلد بحكمه ، وأمر المستخلص وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة اشبيلية ، والزهري في كل ذلك تلوه ومقتدٍ به ، فما راعوا حق الحرمة ، ولا أدوا شكر النعمة (١) .

ذكر ولاية أبي حفص عمر بن يوسف بن تاشفين

وفي هذه السنة صرف علي بن يوسف امير المسلمين الأمير أبا زكريا يحيى ابن علي عن اشبيلية ، وقدم اخاه أبا حفص والياً عليها ، ولمـا وصل الأمير ابو حفص الى اشبيلية برز اليه اهلها وخرج الأمير ابو مروان بن ابي العلاء زهر وكان أبوه ابو العلاء مستوطناً بفاس بالأمر ، فلما رآه أصغره وقصّر به ،

(١) أشار ابن عبد الملك الى ما حدث لابن زهر عبد الملك ايام الامير علي بن يوسف اشارة مقتضبة فقال : « وأدركته مطالبة عند ابي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين كانت سبب اعتقاله بسجن مراكش مدة » (الذيل ٥ : ١٩) .

وترجل صاحب المدينة خالصة ابن زهر فأخذ بيده مسلماً عليه ، فلما أعلم به أمر عليه فألقيت عمامته في عنقه وجر الى السجن ، فتقلقت نفوس الحاشية واستشعروا الشر . وجلس الأمير ابو حفص عشية ذلك اليوم في رحبة القصر فاستحضر من حاشية ابن زهر رجلين متلبسين بأمره فأمر بضرب اعناقهما وطيف برمحه على اسواق المدينة، وذهب ادب ابن نهية العتاد واقبل أدب .. الحجاج ..؛ فتثقف البلد وتمهد وسكن الارجاف وفر المريب وجاء البريء ، واقبل الامير أبو حفص على تتبع هذه الحاشية وجعل غرضه الانتقام فيهم والتشريد لهم.

وفي هذه السنة نفذ عهد امير المسلمين علي بن يوسف الى ... محمد بن ميمون قايد الاسطول بتعمير جلته وغزو بلاد الروم بها فعمر خمسة وعشرين ... الدربة والنجدة فاستفتح مدينة قطرون وهي على مسافة يوم من مدينة . . فيها وامتنعت جملة من اهلها بقصبتها وهي وعرة المرتقى باسقة [1] الذرى فتعلقت ... واشرفوا على استفتاحها فحماها الليل ... دونها وصدر المسلمون الى الاسطول وعدها ... وخمسون رأساً من السبي وكثير . . وانصرف عنها القايد الى المرية .

قال.. أبو بكر [ونهض] علي بن يوسف الى مدينة اشبيلية . في الاقبال واثبت ابن روادة ربما يلحق بقرطبة فلما تمهدت مدينة قرطبة واستلب امره أخذ في الصدر منها فلقي ابا الطاهر بجزيرة طريف مقبلا وصادرا ولحق ابو الطاهر اغرناطة في رمضان المعظم [2] .

(١) في المطبوعة : فاسقتها .

(٢) كان الأمير أبو يحيى بن روادة (رواد في الحلل) قد ولي قرطبة ، فحدث بينه وبين أهلها ما أوجب قيامهم عليه وكانت فتنة، اضطرت علي بن يوسف إلى مخاطبتهم أولاً بالتقريع والتهديد، فلما لم يؤثر فيهم التهديد نهض اليهم سنة ٥١٥ه (وهذا هو جوازه الرابع) وطال مقامه على قرطبة وتردد اليه أعيانها يسألونه الصفح ، فوقع الاتفاق على ان يؤدوا اليه مالاً عوضاً عما نهب من المرابطين (الحلل : ٧٠ — ٧١ وابن القطان : ٣٢)والنص المضطرب هنا يشير الى هذه الحادثة؛ وفي طريف التقى الاخوان علي وتميم .

وفي هذه السنة ولي مرسية ابو زكرياء يحيى بن غانية اللمتوني .

وفيها ولي قضاء المرية ابو الحسن بن اضحى .

وفيها نهض يناله الى شرق الاندلس فلم يزل بـه الى جمادى الاولى من العام المقبل .

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة اغزى ابو عبد الله محمد بن ميمون قايد الاسطول علي بن يوسف مدينة نقوطرة [1] من عمل رجار صاحب صقلية ففتحها وسبى نساءها واطفالها ... فيها وكان علي بن يحيى صاحب المهدية كتب كتابا الى رجار عندما وقع بينهما وحشة يضمن تهديده فيه بادخال الملثمين والعرب الى صقلية فلما كان من غزو ابي عبدالله ما كان لم يشك رجار صاحب صقلية ان السبب الباعث على ذلك والمحرك له صاحب المهدية، فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة [وأكثر] الاستنصار واستجاش وحشد كأنما في ذلك كله لامره ، فمنع [2] السفر الى سواحل المسلمين، والتأم له ما لم يعهد مثله [3].

وفي هذه السنة ولي الامير تميم بن يوسف اشبيلية من بعد ولايته اغرناطة فوردها في جمادى الثانية .

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة صرف الامير تميم عن ولاية اشبيلية ووليها ابو بكر بن علي بن يوسف .

وفيها حاصر اسطول صاحب صقلية مدينة المهدية ونزل عليها في جمادى

(١) في المطبوعة : بقوطرة والتصويب عن المكتبة الصقلية : ٢٨٢.

(٢) في المطبوعة : بمنع .

(٣) يحدثنا ابن الاثير أن علي بن يحيى صاحب المهدية كتب لأمير المسلمين علي بن يوسف ليجتمعا على قصد صقلية ، ولكن علياً توفي سنة ٥١٦ه وخلفه ابنه الحسن، فأرسل علي بن يوسف الأسطول سنة ٥١٦ه ففتح نقوطرة بساحل قلورية Calabria وهذا أدى برجار الى جمع اسطول كثيف قيل انه هيأ فيه ثلاثمائة قطعة وجهها لغزو ساحل افريقية (سنة ٥١٧) (انظر المكتبة الصقلية ٢٨٢ — ٢٨٣) .

الاولى في نحو ثلاثمائة مركب حمل على ظهورها ثلاثين الف راكب وزهاء الف فارس فأرسل الله عليهم ريحاً صيرت جميعهم الى الانتشار ، وأصلتهم مع برد الماء حر النار ، فلما عاينوا ما نزل بهم انزلوا عن ظهور مراكبهم ما كان انجاه الغرق من افراسهم فصدموا بها جيوش المسلمين فخيب الله آمالهم وجعل الدائرة عليهم لا لهم ، وأقلع جميع الاسطول خاسرين الى بلادهم وبعد ذلك لم [تجلب] صقلية بخيل على المهدية الى ان استولى عليها بعد ذلك واخرج الروم منها الموحدون على ما يأتي .

وفي سنة ثمان عشرة وخمسمائة تسمى محمد بن تومرت السوسي بالمهدي وكان لما اشتهر صيته (١) في قبائل الجبال ووصلوا اليه رحل معهم الى جبل ايجليز لهرغة فلما صار في منعة الجبل وحماية عشيرته خاطب القبائل ومد يده للبيعة وذلك في سنة ست عشرة على ما اذكره في موضعه . قال اليسع بن عيسى الغافقي :ولما صعد الامام بالجبل امر بتحصين موضعه لانه ما كان له الا طريقاً واحداً وذلك الطريق لا يمشي فيه الا راكب بعد راكب من كثرة توعره واخذ يعرض اصحابه على قتال الملثمين ويقول لهم اقتلوا المجسمين والبرابر المفسدين والفقهاء المكارين . قال ابن القطان (٢) : ولما ارتقى جبل ايجليز اقام فيه ثلاثة اعوام من سنة خمس عشرة الى هذه السنة المؤرخة .

وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة (٣) امر المهدي بتمييز الموحدين ونودي في جبل المصامدة من هرغة وجنفيسة من كان مطيعاً لله ولرسوله وللمهدي فليصل وكانوا يعرضون الى ابي محمد البشير فيخرج قوماً على يمينه وقوماً على يساره فكل من اخرجه على يمينه يزعم انه من اهل الجنة وكل من اخرجه على يساره يزعم

(١) نظم الجمان : ٧٥ وهو منقول عن اليسع .
(٢) نظم الجمان : ٢٣ .
(٣) شرح ابن القطان : ١٠٢ - ١٠٤ قصة هذا التمييز وانظر البيذق : ٧٨ وابن خلدون ، ٦ : ٢٢٨ وابن الأثير ٨ : ٢٩٧ ونهاية الأرب ٢٢ : ١٩١ .

أنه من اهل النار ولا يخرج على اليسار الا من كان شاكاً في ان الامام هو المهدي المعلوم.. الله ممن خرج على اليسار آلافاً ذكر ذلك ابن القطان وغيره ، واخبرني ابو علي صالح قال : لما قتل محمد بن تومرت هزميرة تينمل قال له الفقيه الافريقي احد عشيرته « كيف تقتل اقواماً بايعوك ودخلوا في طاعتك وتقسم أموالهم ؟» فأمر به فقتل وصلب لانه كان شك في عصمته ؛ وكان قتله لهزميرة تينمل سنة ثمان عشرة جمع المهدي عليهم اهل تلك الجبال فقام بهم وقتل منهم فيما ذكروا خمسة عشر الفاً فلما استأصلهم وسبى اموالهم بنى حصن تينمل فلما ملك المهدي تلك الجبال وما حولها ضاق الامر على علي بن يوسف فبعث اليها عسكراً فهزم .

وفي هذه السنة (١) خاطب اهل نظر اغرناطة من جبل دور ... والبشارات لابن ردمير وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم ملحة عليه في الاستدعاء مطمعة له بدخول اغرناطة ووجهوا له زماما يشتمل على اثني عشر الفاً من مقاتلتهم وأعلموه ان هؤلاء ممن شهدت اعينهم لقرب مواضعهم وبالبعد من يخفى امره « ويظهر عند ورودك شخصه ، وهذه الجملة كافية ، وعورات البلاد بادية ، وعندنا رتب ونظر نخرج لك عنها بالمسانية ؟ » فاستزاد طمعه وابتعث جشعه واستفزوه بأوصاف اغرناطة ومالها من الفضل على سائر البلاد بتحصينها وكثرة عيونها وانهارها ومنعة قصبتها وانطباع رعيتها وانها المباركة التي يملك منها غيرها وهي المسماة سنام الاندلس عند الملوك في تواريخها ، وأشخصوا بكتابهم وزمامهم كهولاً منهم تكلموا بين يديه ملء افواههم ورموا على ذلك الغرض حتى عزم وجد في الحشد وانتخب من محتشده خمسة آلاف فارس وخمسة عشر الف راجل .

وتحرك بهم اول شعبان وقد اخفى مذهبه وكتم اربه الى ان وصل بلنسية

(١) قارن بما جاء في الحلل الموشية ٧٥ - ٨٠ والاحاطة ١ : ١١٤ والنص هنا يتفق في كثير من عباراته مع ما جاء في الاحاطة .

في يوم الثلاثاء الموفي عشرين من رمضان فأمر بضرب محلتـــه ومشى في اهبة فمر عليها وزاحمها ثم رحل عنها من موضع الى موضع الى ان وصـــل مدينة وادي آش (١) فاضطرب محلته بموضع يعرف بالقصر (٢) من باديتها على فرسخ منها ، وذلك لعشر بقين من شوال ، فبدا نجيث (٣) المعاهدة في استدعائه ، وافتضح سرهم في اجتلابه (٤) وهمّ الامير ابو الطاهر بجمعهم وثقافهم ، فأعياه ذلك بكثرتهم وبعد اقطارهم ، واقبلوا يتسللون الى ابن ردمير على كل طريق ومن كل فج عميق ... فكثرت رجلتـــه وضخمت جملته وضايق مدينة وادي آش بالحرب من جهة القبلة فرأى ... فجد في حربها من الغد فأتت عليها السهم وفقد جمـــلة من ... أقام بمضطرب محلته نحو النهر وأهـــل وادي آش في حصـــار صعب قد اخذوا المنـــازل وسكنوا ... ارباض ... المتجلدة من السترة تنتقل اليها الاحجار وكانت تبرز المخـــدرة من خدرهـــا ومنهتك من سترها .

ولما اتصل بامير المسلمين نبأ ابن ردمير اللعين انفذ امره الى اقطار العدوة بتسريب الجيوش الى الاندلس فأجازت البحر وجدت في السير حتى احدقت باغرناطة ، واقبلت عسكرية مرسية وبلنسية ، وتحرك ابن ردمير من وادي آش وأخذ على بربيطة (٥) يوم النحر ، فصلى الناس بالمصلى صلاة الخوف وهم في الاسلحة ، وتحرك الامير ابو الطاهر من اغرناطة بالجيوش للقاء العدو فمشى مسافة اميال ثم صدر الى المدينة ، وظهرت أخبية العدو في غد صدوره اليها على فرسخين منها وجاءت الطلائـــع منبئة بها فعميت ... وانقطعت السابلة

(١) Guadix .

(٢) Alcazar وهي واقعة إلى الجنوب الشرقي من غرناطة .

(٣) في الاصل : فبدأ يحث وفي الاحاطة : فبدأ بحث ، وكلاهما خطأ ، وبدا نجيث المعاهدة يعني ظهر ما كان مكتوماً في انفسهم.

(٤) في المطبوعة : اجتلائه .

(٥) كذا وفي الاحاطة والحلل ٧٧ :«وتحرك من وادي آش فنزل بقرية دجمة» (Diezma) وهي تقع إلى الغرب من وادي آش .

والواردة وقلّت المرافق وتزاحم الناس في المدينة وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب والخراب وكثر الجزع والارجاف والموجان بالنهار والليـــل ... والاسوار معمورة باهل البلدة وما نسي في الدور غير الصبية والنسوة ، وتوالت الامطار وسالت الطرق وضاقت النفوس اشد ضيقة .

واقام بن ردمير بمضطرب محلته بضع عشرة ليلة لم تسرح له سارحـــة ولا شنت غزوة ولا انفصـــل بعض جيشه عن بعض ، والمعاهـــدة تجتلب اليه الاقوات والعلوفات ، وخيل المسلمين تراوحـــه وتغاديه دون مناوشة ، وفي خلال ذلك سفر الى رأس من رؤوس المعاهـــدة بالحضرة يعرف بابن القلاس يوبخه على استدعائه ويلومه على تضمنه بما لا يفي به ولا يقدر عليه ، فاحتج له بتلومه وتباطؤه في اقباله حتى اقبلت الجيوش من الشرق والغرب والعدوة وقال له : قد أوبقتنا واوقعتنا في الهلكة الى المسلمين، وساق نفسه الى الخزي فلما انصرف السفير بهذه المقالة تحرك ابن ردمير بمحلته من موضع الى موضـــع الى الجبل الذي يحوفي .. قبرة (١) فبدت للمسلـــين جملة محلته وكانت قبل مكنة بالجبال والشعْراء .

وبعد حركته من خارج اغرناطة لحق الامـــير ابو بكر امير المسلـــين بمحلته من اشبيلية فأقام يوماً ، ثم تحركت الجيوش في أثر العـــدو ، واقام ابن ردمير بجبل قبرة اياماً ثم تحرك منه ، وعساكر المسلمين تتبعه وتنتقل بانتقاله ... عـــن يمينه وشماله الى حصن ارنيسول (٢) ، فصبحته الجيوش يوم الاربعاء الثالث عشر من صفر فكانت عامة النهار مكافحة وفي اثنائها مناوشة والظهور عليه . فلما طفلت الشمس أمر الأمير تميم برفع خبائه من وهدة كان فيها الى ربوة عالية ... ، فاختـــل الامر وانتكثت تعبئة الجيوش وساء به

(١) قبرة (Cabra) تقع الى الشمال الغربي من غرناطة .

(٢) ارنيسول (ويكتب احياناً الرنيسول) Arnizol أو Arnazuel فحص «وحصن» يقع إلى جنوب غرناطة .

الظنون ، وأخذ الناس في الفرار وجعلوا اوجههم الى الساقة ، وتهيب العدو والأمر فلم يدخل المحلة الا بعد هدأة من الليل ، ثم اخذ الى جهة الساحل ، ثم عاد الى اغرناطة فضرب محلته على ثلاثة فراسخ منها فأقام بها ثلاثة ايام وفي الرابع ... العساكر وسرعان خيله بقرب من الزاوية صمد أبو حفص بن توزجين بجيش مكناسة ... ووقع الضرب والحرب فأخرجهم عنها ، وصار المسلمون الى المدينة وانجلت الجيوش عن هذا الفحص . استشهاد رجال من الموحدين ... وانتقل ابن ردمير الى المرج مضيقاً عليه والخيـل تحرجه ، فاضطرب محلته مضطراً ثم رحل منه ورجع الى وادي آش وقد بادره ينالة اللمتوني بعسكر فاس ، فحاربه من جهة واديها ، ففقد عدداً كثيراً في ذلك اليوم واصيب له زعيم كبير ، فرفع أخزى رفع ، ودفع شر دفع ، فأخذ الجيوش تضيق عليه الى فحص قرباقة (١) من انظـار مرسية ، فاجتاز بجيوشه وأخذ على حصون شاطبة والعساكر في كل ذلك تطأ اذياله وتناوشه وتصيب منه ، فكان يترك في كل منزل هلكى ومرضى لا ترجى، حتى لحق بلاده مخترم الجمع مفلولا بلا حرب، ومن خلص من حملته الى موضعه استولت عليه الامراض ... الاغراض فكاد الحـين والموت يواصلهم وصدرت العساكر ... واستقر المختص منها بالاندلس في مواضع ارزاقها ، وأخذ المدد في الاجازة الى العدوة .

وفي هذه السنة احتسب الفقيه القاضي ابو الوليد بن رشد (٢) - آجره الله - وتجشم النهوض الى حضرة مراكش ، فتلقـاه امير المسلمين بالمكرمة والمبرة ، وبين له القاضي امر الاندلس وما بليت به من معاهدتها وما جرّوه اليها وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير ، وما في ذلك من نقض العهد والخروج عـن الذمة ، واصغى اليه الامير عليّ وتلقى قوله بالقبول، فوقع نظره على تغريبهم

(١) Caravaca .

(٢) انظر خبر جوازه هذا في الاحاطة والحلل الموشية ، وقـد اخطأ ابن القطان فجعل جوازه سنة ٥٢٢ وكانت وفاته قبل هذا التاريخ .

واجلائهم من اوطانهم وهو اخف مـا يؤخذ به من عقابهم ، ونفذ عهده الى جميع بلاد الاندلس [باجلاء .] المعاهدين الى العدوة،فنفي منهم في رمضان عـدد جم انكرتهم الاهواء واكلتهم الطرق ونسفتهم الاسفـار ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شذر مذر واحل بهم عاقبـة مكرهم واذاقهم وبال امرهم ولا يحيق المكر السيء الا بأهله .

ونبه القاضي على بناء الاسوار فشرع الامير علي بن يوسف في بناء سور محدق بمراكش في هذه السنة فكمل في اقرب وقت وأعجله، وورد كتاب الامير علي بن يوسف الى الاندلس بالنظر في الاسوار بجميع البلاد فتلوم ذلك النظر فيه حتى صرف الامير ابو الطاهر عن اغرناطة وقرطبة في رمضان ونهض الى مراكش ، وقدم ابا عمر ينالة على اغرناطة ، وقدم أبا حفص عمر بن سير على قرطبة ، وخرج ينالة من اغرناطة بالجيش متحملا ميرة اقليش فلما احتل ... اعترضه جملة وافرة من الروم ووقـع الضرب بينهم وثبت المسلمون فهزم الله الكفرة ، واورد ينالة الميرة وصدر ظافراً ظافراً . ولما استقر ينالة بغرناطة بعد انفصال الميرة وقد تهيب امره وانتهج امر السور ثم اغزى الامير ابو ... ابن يوسف بن تاشفين ارض طليطلة في جيشه وجيش قرطبـة فغنّمها وصدر منها غانماً ظافراً الى اغرناطة .

ذكر التعتيب بالاندلس وبناء الاسوار في هذه السنة

فلما صدر حد في تعتيب البلد وقلد ذلك من وقع الاتفاق عليه من قاضي (١) القطر ابي القاسم بن ورد وصاحب المستخلص ابي علي بن هدبة وقدم لقبض المعتب رجل من بني نجبة لم يكن من الحزمة ولا من الخدمة فمزق المـال كل ممزق ، وعاث فيه كل ممخرق ، وذم ينالة جميع البنائين ، وشد على الناس في دفع المال فكانت الآلات متمكنة والموردة متصلة ، وتُهُيِّبَ ينالة فكان

الناس يخافونه اضغطه وشدته ، وكمل السور في اقرب وقت ، وكان حاطب ليل ، وبعض البنائين غماء سيل ، لا وفوا التأسيس ولا قوموا الترصيص ، ولأقرب مدة وهى وسقط كثير منه على المجاورة بجهة باب الرملة وباب البيرة ، فأهلك جملة لا تحصى وكثر الدعاء على بانيه ومموّنه (١) .

وتولى النظر في اسوار المرية رجل منهم يعرف بابن المعجمي من اصحاب ابن ميمون ، فأخذ بالحزم ، واستكثر بالسياسة والعزم ، ولم ينفق شيئاً من المال الا في موضعه ، ولا استعان الا بمن جدّ في نصحه ، ورأى الناس ذلك فتساهلوا في الاداء وتواصلوا حمل تلك الاعباء ، فكمل السور على واجبه من التحصين والتحسين ، بيسير من المونة دون ضرب ولا سجن . وتولى اهل قرطبة رمّ اسوارها على سالف عادتهم ، فعزم أهل كل مسجد اقامة ما يليهم فكمل الأمر دون تشغيب ولا تعتيب ، وكذلك اهل اشبيلية بوسط الحال دون اسراف ولا اجحاف .

وفي ليلة الاحد الحادي عشر لذي القعدة توفي بقرطبة الفقيه القاضي ابو الوليد ابن رشد رحمه الله (٢) وهو محمد بن احمد بن رشد وله « شرح المستخرجة (٣) » تأليف لم يسبق احد من العلماء الى مثله ينيف على المائة جزء هكذا ذكر صاحب كتاب « الأنوار الجلية في محاسن الدولة المرابطية » وله مقدمات في الفقه فسّر فيها مذهب مالك – رحمه الله – بأبلغ حجة واوضح معنى الى غير ذلك من التواليف . وصلى عليه ابنه ودفن بمقبرة بني العباس فلم يعهد مثل ذلك اليوم في الحفل وكثرة المخلوق فيه .

وفي سنة عشرين وخمسماية قال ابن حمادة : قام رجل في ريف سبتة في

(١) في المطبوعة : ومونيه .

(٢) انظر ترجمة ابن رشد الجد في الصلة : ٥٤٦ والنباهي : ٩٨ والديباج المذهب : ٢٧٨ وبغية الملتمس رقم ٢٤ .

(٣) اسم هذا الكتاب « البيان والتحصيل ، والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل العتبية » .

كركال وادعى انه الخضر فقبض عليه في العشر الأول من جمادى الآخرة ووصل الى سبتة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من الشهر المذكور فحمل منها الى حضرة مراكش فقتل وصلب .

وفي هذه السنة تواترت أخبار المهدي بمراكش وطاعت له الجبال كلها .. فأكمل البشير الونشريسي الميز في العام الفارط امره المهدي بالتقديم على الباقين .. فغزا بهم في هذه السنة كبك ووصل الى اغمات وحوز مراكش ورجع الى الجبل ، فأخذ الأمير علي بن يوسف يبني المراصد بقرب مراكش ويسد الطرق التي ينزل منها اتباع المهدي الى الاوطية .

وذكروا انه في هذه السنة كان وصول ابن رشد الى مراكش ووفاته بقرطبة والله أعلم (١) .

وفي هذه السنة نهض ينالة اللمتوني الوالي على اغرناطة الى شرق الأندلس فلم يزل به الى ان عزل عن اغرناطة في جمادى الاولى من عام اثنين وعشرين فكانت ولايته سنة وتسعة اشهر ، وكان ابو عمر ينالة استدعى فقهاء وعلماء من اهل جيان فلما حضروه أمر بسجنهم ظلماً واعتداء ، ثم نهض للغزو الى الشرق فلم يزل في تلك الوجهة وهم في العقلة الى ان عزل بالامير ابي حفص عمر بن امير المسلمين علي بن يوسف ، فلما ورد اغرناطة بادر بإخراجهم واصدارهم الى بلدهم على غاية المبرة والكرامة ، وفرج الله بعزلة ينالة عن المسلمين الغمة وانفرجت الضيقة بالأندلس .

وفي سنة احدى وعشرين وخمسمائة قال ابن القطان : وجمع الامام المهدي في هذه السنة نحو اربعين الفاً من الرجال ونحو اربعماية فارس فنزلوا على مراكش فخرج اليهم لمتونة في اكثر من عددهم مع اميرهم علي بن يوسف فهزموه ، ومات عسكر علي بن يوسف على باب اغمات ، وطال حصار مراكش نحو اربعين يوماً يلتقون فيه ويتقاتلون ، وخرج علي بن يوسف

(١) في هذا متابعة لما ذكره ابن القطان . انظر الحاشية رقم ٢ ص ٧٢ .

أيضاً بعساكره وانهزم ومات من عسكره خلق كثير بالزحام عند باب دكالة ، وفر أقوام من عسكره حين لم يجدوا من اين يدخلون الى مراكش حتى وصلوا الى وادي ام ربيع ، فلما رجعوا بعد ذلك الى المدينة امر علي بن يوسف بحلق لحاهم ومثل بهم . ولما مكث اصحاب المهدي بحشودهم في البحيرة المدة المذكورة وصلت الحشود والعساكر من كل مكان الى علي بن يوسف فخرج بهم اليهم فهزمهم وقتلهم قتلا ذريعاً ، وفقد في هذه الهزيمة ابو محمد البشير ولم يجده الموحدون ولا المرابطون لا حياً ولا ميتاً (١) . وذكروا انه كان لطايفة المهدي على علي بمراكش اربعون هزيمة ، [و] عليهم هذه الهزيمة المعروفة بهزيمة البحيرة قتلوا فيها اجمعين حتى لم يبق منهم الا نفر يسير مع عبد المؤمن ؛ وقدم عبد المؤمن مرة أخرى وبات على هيلانه فحشدهم ورجع بهم الى مراكش فهزموا ايضاً ، فمات في تلك الهزيمة نحو اثني عشر الفاً وتوجه عبد المؤمن مع خمسين رجلا الى تينمل ووجد المهدي فقال لهم : « بقي الامر (٢) » .

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ولى امير المسلمين علي بن يوسف ولده عمر في مدينة اغرناطة واحتلها في شهر جمادى الاولى . وكان في جملته رجل زيه التلثيم نشأ بمدينة طنجة وتأدب باشبيلية يعرف بموسى بن مفروح له خط بارع وأدب صالح ونفوذ في الحساب وكانت له نفس ذكية وهمة عالية القى اليه الامير ابو حفص جميع الأعمال وأوطأه [عقب] (٣) الرجال فاستبد

(١) قد ألحت المصادر الموحدية الى ما يشبه المعجزة في اختفائه (انظر البيذق : ٢٨) .

(٢) انظر تفصيل وقعة البحيرة في البيذق : ٧٨ - ٨١ . ويعني المهدي بقوله « بقي الامر » أن عبدالمؤمن رجع حياً من المعركة ، يقول راوي الخبر : « فأسرعت حتى وصلت المعصوم (أي المهدي) فأعلمته . فقال لي : عبد المؤمن في الحياة ؟ قلت : نعم ، قال لي : الحمد لله رب العالمين قد بقي امركم .

(٣) في المطبوعة : وأوطأ فيه .

بالأمر واستقل .. فدس اليه يهودي ينتحل الطب سقاه يوم اربعاء ودفن يوم جمعة .

ولحق الامير ابو بكر والي اشبيلية بغرناطة متوجهاً الى شرق الاندلس فسار اليه الامير ابو حفص اخوه فدخلوا المدينة في اجمل هيئة واتقن زينة... فاجتمع بأخيه واقبلا مقترنين والجيوش تحفهما وكان مضطرب محلة الامير ابي بكر بالمصلى فتلوم اياماً ثم تحرك الى وجهته فقصد حصناً كان للروم قد تملكوه غدراً فنصب عليه الحرب ودخله عنوة ، وامتلأت ايدي المسلمين بكثير من الاسلحة والآلات والزي والمتاع وثقف الامير ابو بكر الحصن بالرجال والرماة وصدر فبرز له بغرناطة احفل تبريز ثم أغذّ السير الى اشبيلية .

وقد نفذ كتاب امير المسلمين الى ولده صاحب اغرناطة بوصوله اليه واقام واجدى بن سير مع اخيه عمر والي اشبيلية وعبدالرحمن بن ابي بكر والي قرطبة وصدر ابو عمر ينساله عن الشرق الى اغرناطة ثم توجه الى الجزيرة وجاوز البحر ، فلما وصل الى حضرة امير المسلمين علي بن يوسف اشار بذكره اليه معاهدةَ اغرناطة ، فأمر بحضره معهم في مجلس نظره ، فأدلوا بحجج في ظلمه فسجنه لهم حتى انصفهم من ظلامتهم ثم بعد ذلك اصابه طاعون كان سبب حتفه ؛ وكان هذا يناله اذا عاقب الجاني اعتدى عليه ، واذا اوتي بالبريء لم يسمع منه ، وكان له كاتب يهودي الاعراق والاخلاق يبغض الناس ويبغضونه اشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به ، فبدا بشؤمه اميرَه يناله ، فجرّ اليه العزل واورده السجن وأداه الى الهلكة ، وغدا شؤمه عليه فاستؤصل ماله ونهبت داره وطلب ليوقع به ففر وهلك بعد ذلك وكان اشقر ازرق دميم الخلق في وجهه خال .

وفي رمضان المعظم من هذه السنة صرف الامير ابو حفص عمر بن امير المسلمين علي بن يوسف عن اغرناطة وكانت ولايته بها اربعة اشهر ووليها

عبدالله بن ابي بكر اللمتوني وكان في شرق الاندلس بجيش العدوة فلما وصلته الولايـة أورد كتاباً على ابي يحيى بن روادة يستنيبه في الامـور المختصة فتولى ذلك .

وفي هذه السنة استمرت عزمة علي بن يوسف اقتداء بابيه في اشارتهم الى من يقوم بالامر من بعده ، فاستدعى من نواب القبائل من وثق بدينه ونظره وفاوضهم في مذهبه ، فكل شيخ ورد على تهمّمه ، وأشار بالامير ابي محمد سير ابنه ، فأمر كتبته بانشاء البيعـة له ، فنزع كلٌّ سهمه الى غرض طبعه وعلمه فلما وقف عليه أعرض عنه وأمر بنقل البيعة المتعهدة في قرطبة باسمه، فألزم نفسه ما التزم وقلده ما تقلده وانفذ الكتب الى عماله وقضاته بالاندلس حتى أخذ البيعة في كل بلدة ، فانعقدت في كل قاعدة بيعة يوم الجمعة الرابع عشر من جمادى الاولى ... امير ابي حفص ثم دنى بها واستدعى الزعـماء والاعيان من جميع جهات اغرناطة فلما ... فيها انفذ الى امير المسلمين بها وتساجل في هذا الشأن اهل البلاد ، هكذا ذكر الصيرفي في كتابه .

قال الوراق في المقباس : لما عزم علي بن يوسف على ان يخلع عهده على ابنه سير الذي من امته [قمر] (١) وجه الى عقد ذلك .. أهل العقد والحل من الفقهاء والقضاة وجمع لذلك بني عمه واخويه الامير تميما كبيره واخاه ابراهيم صغيره المشتهر بابن تاغيشت وهي امة سوداء ، فسلم الأمر لابنه سير وشهد الشهود عليه بذلك وكملت البيعة له وارسل بها الى سائر الاقطار والانظار فاستقرت البيعة للمذكور والتزم قبولها واستقل بالامر ونظر في سائر ما تدعوه الضرورة من امور الجيوش والاحكام والولايات والعزل ورد المظالم وقعد للناس قعوداً فخماً وكان تام الخلقة حسن الخلق كامل الأدوات من الفروسية وغيرها جميل الهيئة ولم يكن له ولد لانه كان عقيماً ولم تطل مدته فهلك في حجر أبيه ، وتكلم الناس في سبب موته بأحاديث شنيعة .

(١) أثبتناه اعتماداً على الاحاطة ١ : ٤٥٥.

ذكر ولاية تاشفين بن علي بن يوسف الاندلس ونبذ من اخباره

لما ولى علي بن يوسف ابنه سير ولاية عهده ، وجعل له الأمر من بعده ، رأى أن يولي ابنه تاشفين الاندلس فولاه امارة اغرناطة والمرية ، الى ان عزل عن قرطبة ابن عمه عبدالله بن جنونة ، فولاه مدينة قرطبة مضافة الى ما بيده لما حسن منابه ، وذلك بعد سنتين من ولايته ، فدخل قرطبة سنة اربع وعشرين واستقر بها ونظر في مصالح امورها وكان بطلاً شجاعاً حسن الركبة والهيئة لولا بخـل أخلّ به وكان يسلك طريق ناموس الشريعة ويميل الى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المريدين وقيل انه لم يشرب قط مسكراً ولا استمع الى قينة ولا اشتغل بلذة صيد ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من سائر اللهو ، وظهرت له بارقة في النصر على النصارى الضارين ببلاد الاندلس فانه كان يؤثر فيهم ويهزمهم في اكثر الاوقات فأحبه اهل قرطبة خواصها وعوامها، فبعد صيته وعلا ذكره ، وساس اهل الاندلس سياسة طار بها ذكره من الاستقامة واتباع لامور الشريعة (١) .

ولما بعد صيت تاشفين (٢) في امر الغزو والجهاد، وشاع ذكره في سائر البلاد ، كبر ذلك على اخيه ولي عهد أبيه سير وفاوض اباه في ذلك وقال له : « ان الامر الذي اهلتني له لا يحسن لي مع تاشفين فانه قد حمل الذكر والثناء دوني وغطى على اسمي وامال اليه جميع المملكة فليس لي اسم معه ولا ذكر» فحينئذ عزله ابوه عن الاندلس وامره بالوصول الى حضرته ، فوصل تاشفين مراكش وصار في جملة من بتصرف بين يدي اخيه سير فكان يحضر مجلسه في جملة كبار لمتونة ويقف على بابه ولم تطل المدة الى ان جرى من امر سير ما

(١) انظر وصف تاشفين في الاحاطة ١ : ٤٥٦ وفيه بعض ما أورده ابن عذاري .

(٢) الاحاطة ١ : ٤٥٤ .

جرى ، ومات حسبما اذكر في موضعه وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ؛ هكذا ذكر الوراق .

وكانت ولايتـه بالاندلس سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، قال ابو بكر الانصاري : ولي اغرناطة الامـير تاشفين فوافاها في السابع والعشرين (١) لذي حجة سنة ثلاث وعشرين فقوى الحصون وسد الثغور واذكى العيون على العـدو وآثر الجند ، ولم يكبر الا الجد ، ولم تنل عنده الحظوة الا بالغناء والنجدة ، ولذلك حمل على الخيـل وقلد الاسلحـة واوسع الأرزاق واستكثر من الرمـاة واركبهم واقام هممهم وعني بالغزو ومباشرة الحرب فهزم الجيوش وفتح الحصون وتهيبه العـدو ولم ينهض الا ظـاهراً ولا صدر الا ظافراً ومهد الملك بالحزم وتملك نفوس الرعية بالمعدلة وقـلوب الجند بالنصفة . قال: ولولا الاختصار لأوردنا من خلاله السنية ما يضيق عنه الرحب ولا يسعه الكتب.

وفي هذه السنة ، وهي سنة ثلاث وعشرين أغزى واجدى بن عمر بن سير اللمتوني على طلبيرة بجيش اشبيلية فاكتسح ما بها وبالـغ في النكاية وصدر بالسيقة ، فتبعه زهاء خمسين فارساً للعدو فحصُضٌ على صرف عـدد يصيب منهم او يشردهم ، فتهاون بهـم ، فلحقه عدد آخر فقيل له بدِّدْهم قبـل تجمعهم فأعرض عن ذلك حتى تكامل للعدو زهاء ثلاثمائـة فارس حمل على جيش المسلمين فانهزم لهم واصابوا من المرابطين جلة وافرة واسروا عـدة ، ورفع الامر الى علي بن يوسف فألزم واجدى فدية من اسر وأنفذ عزلتـه وولاية الامير ابي زكرياء يحيى بن علي ابن الحـاج وبجوز (٢) ، وكانت ولاية عبدالله بن تينغمر مدينة قرطبة في السنة الفارطة عن هـذه وهو ابن اخت علي بن يوسف .

وفي سنة اربع وعشرين وخمسمائة استصرخ صاحبُ قرطبة الأمير تاشفين،

(١) في الاحاطة : في السابع عشر (وأورد النص المذكور هنا : ٤٥٦ ، ٤٥٧ مجزءاً) .
(٢) يعني أنه يعرف بابن الحاج او ابن بجوز (وتكتب : مقوز) .

والعدو مصمم نحوها ، فبادر اليها فارتدع العدو عنها ورجع عوده على بدئه ، فلم تكن له نكاية ، فثنى الأمير تاشفين أعنته الى مدينة جيان وأقام يستطلع الأنباء ثم صدر الى اغرناطة .

وفي هذه السنة توفي صاحب بلنسية محمد بن يوسف يدر وتولاها ينتان ابن علي اللمتوني(١) فقرن الله بذلـك ... وظهر بالروم وسيق رأس زعيمهم غشتون(٢) الى اغرناطة في شهر جمادى الآخرة، فنصب على ذروة رمح وطيف به الاسواق والسكك وشهر بضرب الطبول ، وأغـذ به البشير(٣) الى امير المسلمين علي بن يوسف وهو بمراكش ؛ فأنشد الأمير تاشفين أبو بكر محمد بن يوسف شعراً ارتجالاً وهو :

بِسَعْدِكَ شبَّتْ في الأعادي لظى الحربِ ... فجاءك مـا تهوى من الشرق والغربِ
وقـد كنتَ بشَّرْتَ الأميرَ بأنها ... بعيـد مسرات تجيء على قـرب
فقد أنجز الرحمن بالنصر وعـده ... وسهّلَ أمراً كان في غاية الصعب
[فخيلك قد] القت بإيلانَ بَرْكها ... وأمضتْ على غشتونَ بالطعن والضرب
وجاءك منها رأس غشتون مخبراً ... على جسد للرمح كفا على ....
صوتاً احر المسى في لسانه ...(؟) ... ولكنه [في] الحال من افصح العرب
وما هذه من تلك اعظم نعمة ... ولكنـه ترب أضيف الى ترب
. . . . على الـبرى وقرب الى الحب

وقيل في ذلك :

يا تاشفينُ وقطبُ الحرب عاطشة ... وليس الا دم الاعـداء يُرويها

(١) ذكر يدر بن ورقاء بين ولاة بلنسية (مفاخر البربر : ٨٢ وذكره صاحب الحلل: ٧٦ وكناه بابي محمد ، ولعل لفظة « أبي » زائدة) . أما ينتان فكان أصغر أبناء علي بن يوسف ابن تاشفين.
(٢) Gaston del Bearne .
(٣) في المطبوعة : البسم ؛ ويذكر ابن القطان : ١٨١ أن رأس غشتون حمل الى مراكش.

قد راسلتك ملوكُ الروم صاغرةً ... في السلم اذ كادت الهيجاء تفنيها
فخيلها الكمتُ ملقى البيد وادعة ... وكمتك الخيل تعدو في مغانيها
تخشى عقابَك في أقصى منازلها ... وتطلب العفوَ من أعلى صياصيها
اذا اتت رسلها جاءتك مقبـلةً ... والسيفُ من غمده سراً يناجيها
تخافُ بحرَ نداك الغمْرَ يُغرقها ... وتتقي الشَّزْرَ من مرآك يعشيها
لا تسمع القول الا ان يحركها ... ولا ترى الشخص الا ان يناديها
تملّكَ الرعبُ منها كل جارحة ... فما لأعضائها فعلٌ يواتيها
فاهنأ فانّ بلادَ الله اجمعهـا ... اليك تكفلُ من فيها وتكفيها

ولما وردت رسل الروم راغبةً في السلم أحسن اليهم وصرفهم الى ملكهم، وأمر بتشييعهم الى مأمنهم ، ثم أخذ في الحزم والعزم ، ونظر في حسم العلل وحد لهم التأهب وأمر الأدلة بالفحص عن الأنباء وأخذ الألسنة .

وبأثر ذلك ورد النبأ الصادق ان القمط [1] احتفـل في الحشد وخرج الى بلاد الاسلام وعزم الامير تاشفين على الخروج الى طرف نظره فتواترت الانباء بتعريج العدو الى طريق اشبيلية يوم النصف من رجب وكان واليها ابو حفص عمر بن الحـاج اللمتوني الملقب ومجور [2] ، فلم يشعر الا والخيـل جائلة بالشَّرَف [3] فخرج بمن كان معه فوقف على ضفة الوادي ببعض خيله ورجله، وأجاز البعض ليكفّ عادية الخيـل الغادية عليهم ، فظفروا ببعض الروم وكروا بهم الى الامير عمر ، فاستخبرهم وأمر بضرب اعناقهم ، ومن بالضفة الاخرى من خيل الروم ينظرون اليهم ، فاحتلتهم الحميـة ، واقتحموا النهر فحاص المسلمون حيصة أجلت عن الأمير عمر صاحب اشبيلية قرب المسلمين كرم ... بشهادة ، فقيل ان حجراً كان يلقى على الظهر ، فلما ألهب الفرس

(١) Conde أو « قومس » يعني ردوريجو جنثالث ، الذي قام بهذه الحملة .
(٢) الصواب « مجوز» أو « مقوز » كما مرّ وهذا هو أخو يحيى بن علي ابن الحاج الذي تقدم ذكره .
(٣) الشرف El Ajarafe هو منطقة التلال المحيطة باشبيلية .

بالجري سقط واثقله عن القيام الدرع ، فداسته الخيل وبطت بطنه بالطعن .
وفي صبيحة تلك الليلة اضطرب الروم بالمحلة على فرسخين من مدينة اشبيلية ، فقتلوا عظيماً وسبوا عظيماً برأى عين ومسمع اذن ، واستاقوا من الاسرى والمواشي والآراب ما لا يحصيه عد ولا يحصره حـد ، فلم ... عن احراق الزرع وقطع الشجر ، وأسرعوا [في] الصَّدَر ؛ ولما علم تاشفين بأخذ العدو الى جهة اشبيلية خرج بالجيش الى سمت قرطبة ، فتلقاه كتاب القاضي بها محمد بن اصبغ معلمـاً له باكتساح العدو مدينة اشبيلية وعرّفه باستشهاد صاحبها ، فجدّ السير في الوصول اليها وقد قتل رئيسها وفض جمعها [1] ... من اهل الحـاضر المتصرفين اسعارها وكثر ... والتادب من اشبيلية وأمر بتنكيله وسوقه الى جزيرة ...

وكان تميم بن يوسف بن تاشفين والياً على فاس فيها فعزله أخوه في سنـة ثلاث وعشرين بعد ولاية العهد لسير بن علي فولـّى بعده محمد بن يزول .وفي هذه السنة وهي سنة اربع وعشرين عزل يزول عن المغرب وولي حـازم بن داود بن عمرو بن يحيى .

وفي هـذه السنة هبط الموحدون الى مراكش وحصروها وبقيت أياماً لا يدخلها احد ثم وقعت الملاقـاة فحصل من اللمتونيين خلق كثير لم يحص لهم عدد وهرب باقيهم الى مراكش واتبعهم الموحدون الى بابها فتراموا في الحفير وطلع فيه الناس على الناس حتى امتلأ منهم ثم رجع الموحدون عنم الىمحلتهم وبقوا عليهم اياماً فوقعت بينهم وقعة مات فيها من الموحدين من قضى الله له بذلك . انتهى كلام ابن حمادة .

وفي هذه السنة وهي سنة اربع وعشرين المذكورة نزلت طائفة من قبائل

(١) يجعل ابن عذاري هذه المعركـة سنة ٥٢٤ ، ويؤرخ ابن الخطيب حركة العدو إلى اشبيلية أواخر عام ٥٢٥ ، أمـا ابن عبد الملك فيشير إلى أن مقتل الأمير عمر كان في رجب سنة ٥٢٦ وأن الذي كتب بخبر الكارثة الى عليّ بـن يوسف هو سليمان بن جعفر الحضرمي (الذيل والتكملة ٤ : ٦١) وذكر ابن القطان تلك الحادثة في أخبار سنة ٥٢٦ .

الموحدين الى كيك فهزموا عسكراً لعلي بن يوسف واخذوا اموالهم وسلاحهم وأخبيتهم [١] .

ثم نزل بهم عبد المؤمن بن علي الى اغمات [٢] فحصروها وقتــلوا في يوم واحد نحو ثلاثة آلاف اكثرهم سودان فاتصلت الهزيمة بموضع افراك ؛ وفي اليوم الثاني اصبحوا على باب الشريعة فخرج اليهم علي بن يوسف من مراكش فهزموه حتى دخل باب المخزن .

وفي هذه السنة توفي المهدي، لما رجع عبد المؤمن من حركته وجده مريضاً فخرج الى الناس فوعــدهم وكلمهم ثم رجع الى داره فتوفي ، وكتم اصحابه وفاتــه ، وكان عمر المهدي نحوا من خمسين سنة . هكذا ذكر ابن القطان رحمه الله .

وفي سنه خمس وعشرين وخمسمائة ورد كتاب علي بن يوسف على الامير ابي محمد عبد الله بن ابي بكر بولاية قرطبة، فلما استقر بها امر بالنظر في الميرة الى ارنيط [٣] وقد انتدبت النصرانية لهذا الحصن خيلا ورجلا واحدقت به لتمنع وصول الميرة اليه وقد نفذت الاموال عليه وطمعوا بــه لكونه [شجيٌ في حلوقهم] وقذى في عينهم ، فاستمدّ الاميرُ عبدُ الله الامــيرَ تاشفين من اغرناطة فأمده بنفسه واجتمع بهما في سمت مرسية واليها ورئيسها يحيى بن علي ابن غانية وتسامعت الروم بذلك فأرسلت امدادها من البلاد النازحة والاقطار الشاسعة فاحدقت بالحصن ، وأمد الميرة ، فحال بــين اتصال الروم ، وأمر الامير تاشفين يحيى بن علي بن غانية بأخذ مخاضة النهر على من بتلك الضفة من المدد ، فلما رأى الروم ذلك استمروا الى سفح الجبل فقل الطمع فيهم ، وأمر الامير تاشفين بضرب المحلة ، فلما حل بالمغرب صدر الناس الى الاخبية وترك

(١) انظر الخبر عن الغزوة إلى كيك في نظم الجمان : ١١٤.

(٢) قارن بما أورده صاحب نظم الجمان : ١١٦ – ١١٧ .

(٣) في المطبوعة : ارنبة .

يحيى بن غانية المخاضة التي وقف عليها ، فبادر الروم الخوض منهــا رجلا وخيلا . . فأخذهم الطعن في النهر ، وذهب المسلمون اكثرهم غرقاً وطعناً وفي...امد الامير تاشفين الحصن بالرماة والرجلة وصدر...اظهر الله المسلمين... واخذ تاشفين في ... من هنــاك المرية ثم وصل اغرناطة في ربيع الاول سنة ست وعشرين وخمسمائة .

وفي هذه السنة اعني سنة خمس وعشرين توفي بمدينة قرطبة ابو العلاء زهر ابن عبد الملك ابن زهر رحمه الله .

ولم يزل امير المسلمين علي بن يوسف يوالي الحروب من قبله على الموحدين ويأمر عساكره بملازمة السكنى حيث بقيت لهم الطاعة من اهل الجبال ... مطاولة الحرب والنزال ووجه اليهم اخاه ابراهيم الشهير بابن تاغيشت فانكسرت محلته من غير قتال ، فأخذ الموحدون اخبيتهم واسلحتهم وألويتهم ، فلمــا جرت هذه الكائنة وشاع ذكر هذه الهزيمة ببلاد المصامدة كثر الوافدون اليهم وقامت الفتنة بين قبائل المصامدة يقاتل الرجل اباه واخاه في داره اذا تخلف عن اتباع المهدي ويكفر بعضهم بعضاً؛ اما مصامدة الجبل فاتبعوه اجمعين واما مصامدة الفحص فقليل .

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة [١] اتصل الخبر بالامير تاشفين بن علي بن يوسف ان العدو خرج من طليطلة الى جهة قرطبة فاستمد الامداد واستمد غاية الاستعداد وخرج الى الجهاد فدارت الحرب على الروم وأخــذ السيف مأخذه منهم وقبض على قــائدهم وعلى عشرين من زعمائهم وامتلأت ايدي المسلمين من اسلحتهم وزيهم ودوابهم . فأمر الأمير تاشفين بثقاف الاسرى والغنايم ونهض بهم الى قلعة رباح لقربها من المعترك ، فألفى أحوالهم مختلة ، وامورهم معتلة، فأصلح ما فسد ، وسد ما اختــل ، وترك الأسرى عندهم ليفادوا بها من في

(١) انظر الاحاطة ١ : ٤٥٩ في خبر هذه الغزوة .

دار الحرب من اسراهم وصدر الى اغرناطة ظاهراً وظافرا، فأنشده الشعراء، فمن ذلك ما قيل فيه من قصيدة :

ركبتْ رَدْعَهـا جيوش الضلالِ ... وَسَرَتْ من رماحهـا بذبال
ملقيات دروعهـا لا لوقت ... فيه تقض.. الجلود وغشى الصلال(؟)
حث في اثرها الامـير بعقبا ... ن جيادٍ هوت بأسد رجـال

ومنها .

انت يـا تاشفـين والله واق ... لـك نفس العلى وشخص الكمال
ليس آمـال من على الأرض الا ... ان ترى انت غاية الاعمـال
وهنئـا بأن نهضت واقبلـ ... ـت [حميد] النهـوض والاقبـال

ومنها :

رب اشياء ليس يبلغ منهـا ... كنه مـا في النفوس بالاقوال
غير ان الكلام ان جـلّ قدرا ... ... وعاينت (؟) فوقه بالفعال

وفي هذه السنة خاطب الامير تاشفين رذريق صاحب طليطلة اخزاه الله ، وكان معروفاً عندهم بالماء الحدة (؟) فولاه ... السليطين بن ردمير [1] حفيد اذفونش ملك قشتالة ... من الأمير تاشفين ... ونظر من خلال ذلك في ... بها الى ان استبشر اهلها بقدوم تاشفين عليها فقويت انفسهم برؤيتـه وتأنسوا به وانضم الى جيشه بقية جيشها ، وتألف اليه عدد جمّ من مظوعتهم واذماء اهل باديتها ، فأخذ بهم في أثر العدو حتى يسير من لحاقه لحلوله ببلاده فكر راجعاً الى قرطبة .

---

(١) السليطين (تصغير سلطـان Emperador) هو ابن أراكة Urraca بنت الفونسو السادس ، فهو اذن الفونسو السابع (٥٢٠ - ٥٣٤) . ولعل هـذا النص المضطرب يشير إلى غزوة تاشفين لحصنِ السكة Azeca وهي غزوة يجعلها لسان الدين عام ٥٢٤ (انظر الاحاطة ١ : ٤٥٩) .

وفي هذه السنة انضافت ولاية قرطبـة الى تاشفين ، وكتب له بذلك ابن ابي الخصال عن ابيه :

«من امير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين، اعزه الله بتقواه، وأمده بتوفيقه وهداه ، كتابنا كتب الله لك معاني ومباني الخيرات ، ومهد لك مراقي الأعمال الصالحات ، من مراكش حرسها الله تعالى ، لعشرة بقين من رجب الفرد سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وقد رأينا والله نسأله الخيرة فيما نرتبه والتوفيق في كل ما نصنعه ، أن نجمع لك قرطبة وأعمالهـا الى ذلك العمل الذي أنت فيه . فاذا وقفت على كتابنا هذا ، فانهض بنفسك على بركة الله الى هناك . واجعل قرطبة دار سكناك وقرارة مثواك . وعلى مقدار ما زدناك من العمل فازدد من التيقظ لاتساع ذرعـك وامتداد مسماك . واستعن بالله في اعلانك واسرارك . وخذ من اوقات ليلك لأوقات نهارك ، واجعـل لنظرك حظاً من سهرك ولفكرك مستمنحاً من تدبرك، واستظهر بحسن المشورة في مواطن الاشتباه ، فان الله سبحانه يقول لرسوله ﷺ : «وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ». واستخلف على غرناطة عند انفصالك عنها أبا محمد الزبير بن عمر ، أعزه الله بتقواه ، والزمه من استشعارك مراقبة الله تعالى من الذي نلزمك اياه ، واعهـد اليه بشاكلة ما نعهد اليك والمستعان الله لا رب سواه » .

ومنها : « وأول ما نوصيك به تقوى الله ، فاجعلها بردة شعارك وعقدة اضمارك، وعهدة ايرادك واصدارك ، ثم اعتمد المعدلة في عباد الله ، فانما انت واحد منهم وكلنا عبيـد الله الى تراب انتسابنا والى الحساب مآبنا ، والناس كلهم سواء في اول النشأة والحال ، وانما يتميزون بالمساعي والاعمال ، فهي التي رفع الله منها بعضهم فوق بعض درجات ... على مجـازاة الحسن بإحسانه والمسيء باساءته بحكم بـاتّ ، وحق على من آتاه الله حظاً من ولاية لادائه وقلده قسطاً من وقاية عباده ، أن يقوم بينهم بالقسط كما أمره الله ويخشى يوماً حق لمن يوصي... اليوم الآخر ان يخشاه ، وان من عزم الامور وحزامة

التدبير ان يلحظوا بعين الكلاءة ... بكل سوء ومساءة . والله المستعان وعليه التكلان لا رب غيره » .

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة [1] وصل العـــدو دمره الله الى حومة مدينة شريش والبحيرة ولم يلقـه احد من المسلمين وصدر الى بلاده : هكذا ذكر ابن حمادة .

وفي سنة ثمـان وعشرين [2] غزا تاشفين بن علي بن يوسف الروم وهزمهم واخذ الاسرى من ... وذلك انه اتصل بالامير تاشفين [أن] عظماء الروم وزعمـاءهم تألف لهم جيش ... يحتوي على الآلاف من زعمائهم ومشهوري ابطالهم وقصدوا ناحية بطليوس وباجة ويابرة ومـا بذلك الصقع من بلاد الاسلام فشنوا الغـارة عليها واستحوذوا جميع ما ألْفَوْا بها ، وانتهوا الى مواضع كانت لا تروّع بعدو ، لبعدها ومنعتها وتعذر الوصول اليها ، فجاسوا خلالها ودوخوا ارضها واخترقوا طولها وعرضها ، فاجتمع من المسلمين ضعف شيعة العدو المجحف باشبيلية ، وانثنوا على مهل لثقـل السيقة وثقتهم ببعد الصارخ منهم ، فثنى الامير تاشفين الأعنّة وأمر الأدلة أن يتجشموا بـه كل ذروة وثنية ، رجاء في لحاقهم فأفضى الاغذاذ به الى فدان [3] بقرب زلاقة موضع المعترك الذي اوقع فيه جدُّه بالطاغية اذفونش بن فرذلند اخزاه الله ولم يكن إلا كلا ولا[4][حتى]أقبلت الطلائع منذرة بهم ، فلما تراءى الجمعان

(١) يؤرخ ابن القطان هذه الغزوة في العام نفسه ، ويقول ان السليطين صاحب قشتالة وابن هود اشتركا فيها « فهبطوا الى اشبيليـــة وانبسطت خيلهم واقتحمت ما وجدت ، ثم هبطوا الى شريش فدخلوها وقتلوا من وجدوا فيها ، واستباحوا وبالغوا في نكاية المسلـــين ثم رجعوا الى بلادهم » نظم الجمان : ٢٠٠) .

(٢) وصل ابن الخطيب خبر هـــذه الغزوة بالمأساة التي واجهتها اشبيلية ومقتل واليها عمر بن الحاج (مقوز) (انظر الاحاطة١ : ٤٦٠) وكأنه يجعلها انتقاماً لتلك الحادثة وقد ذكرها ابن القطان في حوادث سنة ٥٢٦ (نظم الجمان : ١٩٨) وراجع الحلل : ١٠٠ - ١٠١) .

(٣) الاحاطة : فلاة .

(٤) المطبوعة : وفي ... ذلك ، والتصويب عن الاحاطة .

اضطربت المحلتـــان وترتبت المواكب فأخذت مصافهـــا ، ولزمت الرجال مراكزها ، فكان في القلب مع الامير تاشفين وجوه المرابطين وأصحـــاب الطاعات ، وعليه البنود البيض الباسقات مكتبة بالآيات ، وفي الجانبين كفاة الدولة وحماة الدعوة ، من أبطال الأندلس عليهم الرايات بالصور الهائلات ، وفي الجناحين من أهل الثغر وذوي الجلادة والصبر ، وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم أهل العزائم الماضية والبصائر الثابتة بالرايات المصنفة والاعلام المنيفة ، فأنقذ الاسرى من ايدي الطاغية ، وأخذ الغنيمة وقتل جملة كبيرة ، وصدر الى قرطبـــة ثم الى اغرناطة ، وذلك في جمادى الاولى من سنة ثمان وعشرين ، فأنشده الشعراء مهنئة بقدومه من غزوه ووصفت هزيمته للروم ، فمن ذلك من قصيدة طويلة ، نبذة اقتصرت عليها :

امّا وبيضُ الهندِ عنكَ خصوم ... فالرومُ تبذل ما ظباك تروم
تمضي سيوفك في العدى ويردها ... عن نفسه حيث الكلام رحيم
دار جعلت بيوتها قطباً لهـا ... ابدا على قمم الملوك تحوم
وكأنما الفرسان قـد عرقت بها ... فطفت وغاصت ارؤس وجسوم
جاست خلال ديارهم وحماتهـا ... في كل واد بالفـرار تهـيم
[لله يا] يوم العروبة انـــه ... يــوم على الدين الكريم كريم
فتح عظيم القدر يمنٌ بشره ... فتـح يقل لقدره التعظـيم
يستفتح البلدان سعدك طالعاً ... من بعد اقلـيم [عنا] اقليم
خضعت ملوك الروم في[بلدانها] ... لأغرَّ قام بتاجه التعميـــم
... الكتايب بعد سير والتي ... فنيت بصارم تاشفين الروم
[هذي] سماء الملك الجـــه ... . النفاق (؟)
وأنت أمير المسلمين . . ...
. . . .

وفي هذا الشعر طول اقتصرت منه على هذا[وقد ورد في كتاب«الانباء]

(١) ورد منها البيتان الاولان في الاحاطة : ٤٦١ .

في سياسة الرؤساء ، وانما هذه نبذ مقتصر عليها .

وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وعشرين اغزى تاشفين الروم وهي غزوة البكار (١) كانت على المسلمين ؛ قال ابو بكر يحيى بن محمد الانصاري : خرج الامير تاشفين في اثر عيد النحر بجيش اغرناطة وقرطبة ولفيف من المجاهدين خيلاً ورجلاً ليقطع بالعدو المغزّو وقد اكتسح ما بتلك الجهة وأوعز تاشفين الى ابي يعقوب ينتان بن علي فخرج بجيش تلك الجهة اعني اشبيلية فاجتمع به بفحص الريحانة في شهر ذي الحجة ، فنهضت الحملتان الى موضع يعرف بالبكار طريق العدو التي لا محيص له عنها فلما [اشتدوا] في طلبه تمكن العدو من رؤيتهم واستشعر أن الامير تاشفين في طلبه ، فخامرهم الجزع ، [فصدر] المسلمون الى البكار فاضطربت المحلة وانبثت الادلة ، ولما تحقق العدو صَدَرَ الامير تاشفين الى البكار حملوا الحملة في انتهاز الفرصة فانتدب من أنجادهم الفان واردفوا عددهم من الرجلة وصمدوا صمدَ المحلة ، وقد تهور الليل وضيّع الحزم، فاقتحموها من فرج كثيرة فثار الصياح وعلا الصهيل واختلطت الأصوات ونفرت الدواب وقطعت مقاودها وقيودها فوقعت على الاخبية فوقع النهب ، وفر الناس وتسلمت المحلة وقصد العدو مضرب خباء الامير تاشفين ، وقرّب فرسه لينجو عليه فانتهز ناصيته ونجا من حظه (؟)وقال: لا اسلم واسلم الامة ولا ابرح او تنجلي عما انجلت عليه هذه الكرة ، فأحدق به رجال من أهل الأندلس وافذاذ من المرابطين ، لم يلتئم الجمع اربعين فاعترضوا بينه وبين الروم فوقع الضرب واشتدت الحرب وعظم الخطب، والامير تاشفين في درعه متشحاً بسيفه ، ودرقته بيده ، يشد حملته ، ويبدي صفحته ، فلم ير أربط جأشاً ولا اشهم نفساً ولا تحدث عن أحد قبله بما ظهر منه في مطلع ذلك الهول وتفاقم الأمر وقد هتكت خباؤه بالطعن ، وجذّت أواخيها بالضرب

(١) Albacar شمال قرطبة. وانظر خبر هذه الغزوة في نظم الجمان : ٢١٥ وجعلها من أحداث سنة ٥٢٩ ، والتاريخان متقاربان ، لأن خروج تاشفين حسب رواية ابن عذاري هنا كان في ذي الحجة (٥٢٨) .

فعانقت الأرض ، وبأخرة طعن أحد العبيد قومس الروم فاخرج الرمح من وراء ظهره ؛ فكانت المحاجزة وانصدع الفجر فانجلت الظلمة والحرب على افذاذ قتلى واعداد جرحى ... مبطوحة ودماء مسفوحة ، ولولا قدر الله السابق بثبوت الامير الاجل تاشفين [لحلت] الفضيحة والآزفة التي ليست لها كاذبة . ورجع العدو في اخريات الليل الى مضرب محلته فأقام الى الضحى مع أخذ آل بلده(؟)وركب الامير تاشفين في الصبح الى قشرش(١)...طلبه ، وكرّ الى حصن قشرش بالمحلة ، ثم رحل صدراً الى قرطبة .

ولما استقر الامير تاشفين بقرطبة انشده الشعراء فقال الفقيه ابو بكر يحيى بن يوسف الانصاري من قصيدة طويلة يمدحه ويعظمه ويذكر بلاءه في الحروب وفعله بما يجنى في ذلك :

. . . . كم يبكي الهمام الأروع

وأخذوا كل طريق . ولما سكنت الثائرة عاد الى اقامة رسمه ، والتزام حكمه ، وجاء رجل يستعديه ، ويذكر موضعاً سلب فيه ، فقال له : وأنا أيضاً سلبت أنا وذهب مالي ومالك ... وصار ايدي سبا .

قال ابو بكر يحيى بن محمد الانصاري : وفي هذه السنة خرج يحيى ابن علي بن غانية عامل بلنسية ومرسية الى حماية الزرع بالثغر وبث الطلائع اثناء ذلك ، فانتهى اليه تقدم عسكر العدو يروم الضرب على بلاد الاسلام ، فاخذ في أثرهم حتى لحقهم ، فاستأصلهم الله واستنقذ الاسرى وصرف السيقة .

وفي هذه السنة هلك الطاغية اذفونش ، ولما هلك أخزاه الله أفضت القومسة الى ردمير أخيه باجتماع الروم عليه بعد امور مشتتة وشؤون مضطربة، فأقر كل عامل على عمله ببلاد شرق الاندلس من بلاده ، وانصرف الى قشتالة حضرة ملكهم ــ عجل الله بهلكهم ــ فاتفقت الموادعة في حين ذلك بين ابي بكر يحيى بن علي بن غانية عامل بلنسية ومرسية وبين ردمير بن ردمير

(١) Caceres وفي نظم الجمان « قصرش » .

ـ لعنها الله ـ الى انقضاء عام ثلاثين الآتي بعد هذه السنة المؤرخة .

وبعد ذلك قطع اهل ارغون (١) برفقة خرجت من افراغه (٢) ناهضة الى وشقة (٣) فبادر صاحب افراغه سعد بن مردنيش إعلام ردمير ، فأحضر الملأ من القسيسين والرهبان وزعماء الروم وقال لهم : « ما منزلة آبائي ومن درج من اجدادي عندكم وما تعتقدونه في انفسكم ؟ » قالوا : على سواء واجتماع ملوك وابناء ملوك ، لهم السمع والطاعة وعندهم العزة والقوة على قدم الدهر كابرا عن كابر وأورثه الاول للآخر . قال « فاين انا منهم ؟ » قالوا « انت احدهم والمفضي اليه ملكهم وشأنك شأنهم ومكانك مكانهم » . قال : « فما [جزاء] من حلّ امراً أبرمته وفسخ ما كنت أحكمته وهم فلان وفلان ؟ » ، وعدّ سبعة من عظمائهم وزعمائهم قالوا : « حكمك ولا اعتراض عليك » ، فأمر اولائك إحضار سلب الرفقة فلما كمل أمر بضرب اعناقهم وصرف ذلك السلب الى أربابهم .

وفي هذه السنة تيمم فاس القاضي ابن الملجوم ، كتب امير المسلمين علي ابن يوسف الى اهل مدينة فاس ينبئهم بذم قاضيهم ابن الملجوم وعزله عنهم .

فصول منه (٤): ابقاكم الله واكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه وقد انهي الينا وتحقق لدينا ان الجهول ابن الملجوم اجهل باحكام القضاء من العلجوم . وانه اظهر فيكم احكاماً يترحم من مثلها على سدوم ، فقد وليناه خطة الملوم . ونبذناه بالعراء وهو مذموم . وجعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم . ولعل متعسفاً يتعسف او متكلفاً يتكلف ...[يلومنا في] تقديمه [وينالنا من العتب بأليمه ولا] قدح .. فقد اختار [رسول الله] عليه السلام لوحي الله ...[لعين بني سرح ،وقداغتر عثمان بحمران .. الخ] .

وفي هذه السنة ولي قضاءَ اشبيلية القاضي ابو بكر ابن العربي رحمه الله ـ

(١) Aragon (٢) Fraga (٣) Huesca

(٤) أورده السلفي في معجم السفر : ١٢١ ـ ١٢٢ (نسخة عارف حكمت) وانه في ابن أضحى قاضي مراكش .

ووصل كتاب ولايته من مراكش الى اشبيلية عن علي بن يوسف ـ رحمه الله ـ بتاريخ يوم الخميس منسلخ جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

وفي هذه السنة خرج العدو ابن ردمير بشرق الاندلس فكسره جيش ابن غانية صاحب مرسية ولم يسلم منه الا بشرٌ يسير وصدر ابن غانية ظافراً بالغنائم واما الطاغية فبقي اياماً ومات من مرض اصابه .

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة،قال ابو بكر يحيى بن محمد الانصاري : وقتل في هذه السنة قاضي قرطبة احمد بن خلف التجيبي رحمه الله ـ أكب رجل عليه وهو في المسجد الجامع وهو في السجدة الاولى من ركعتي الجمعة فضربه بخنجر فصرخ وقطعت الصلاة وبطش بالضارب وحز رأسه فرفع في عصا وشهر رجل آخر سيفاً فقتل به وألحق بصاحبه ، وهرج الناس في الجامع لا يعلم اكثرهم ما حدث فيه ، ثم انزعجوا الى المقصورة فسدت ابوابها ومنعوا منها ، وشهر المرابطون أسلحتهم وأخرجوا أميرهم تاشفين على باب الساباط ، وحمل القاضي في نعش فقضى عند العصر ، والتطخت قرطبة بما لم يشتمل عليه ديوان، ولا بدر في زمان، من اغتيال قاض عدل فقيه خير جامع لأعمال البر قتل مظلوماً ساجداً في صلاة الجمعة ، وقد تقدم ما كان من تحذير الوالي خشيته على ابن رشد ، فكان الأمر الذي أصيب هذا به .

وثارت العامة ايضاً بقرطبة فيهذه السنة في رجب على اليهود ـ لعنهم الله ـ بسبب قتل وجد بين أظهرهم ، ففتحت منازلهم وانتهبت اموالهم وقتل نفر منهم .

وثارت السفلة أيضاً باشبيلية على قاضيهم أبي بكر ابن العربي وذلك انه كان له في عقاب الجناة اختراعات مهلكات ومضحكات فانتدب أنفساً جمة صلباً وضرباً وسيق [اليه] أحد الزّمرةِ فأمر بضرب يديه وثقب شدقيه فانبطلت الحكة عليه ، وعثر أعوانه على حامل خمر لم تتم عليه فباغته وتحفى بسؤاله [وتلمس] طريقاً يخرجه الى ثقاته ، فطَمس ذلك الرجل

وأبهم الأمر وقال : عندي خادم رومية ... والخمر قوام شرعهـا فابتعتها وحملته لها ثم عثر عليّ هؤلاء ؛ فأطرق ابن العربي وقال « لعن الله بائعها ومبتاعها وعاصرها وحاملها »... اللعن عليها. فأمر بلعنه وعرضه على الحامل ثم خلّى سبيله ، فانطلق عليه اللعن في كل مكان ومن كل انسان ولا ...ذلك امر من العقاب وأشد من العذاب فلما طال على الرجل الامر انتقل عن البلد ، [وظلّ ابن] العربي يوالي التشدد والتسلط حتى [ثقل على الفساق] والاشرار فهاجوا .

... عبد المؤمن بخليفته وتحرك عبد المؤمن لتاوررت فدخلها واستولى على بلاد السوس كلها وقتل من لم يتبعه من اهلها وهزم قائدها علي بن يوسف وعسكره وحصل بعسكره في تيونوين : هكذا ذكر ابن القطان (١) .

وفي هذه السنة هلك الطاغية اذفونش اخزاه الله تعالى .

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة (٢) أغزى تاشفين بن علي بن يوسف الروم في شعبان المكرم بعد ما استحضر زعماء المرابطين ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم فقالوا: « الدولة لنا فاما تركها او حمايتها لا يتقدمنا (٣) احد الى لقاء عدونا ، فاذ استشهدنا فالامر لمن شاء الله بعدنا » ثم دعا العرب فقالوا : « ارم العدو بنا ولا تشرك أحداً معنا ، وسيرى الله عملنا » ثم استدعى زناتة والحشم فقالوا : « لا جواب الا الفعل وشرطنا ان تعول ايتامنا » فجزى كلاً خيراً واجابهم بما أطاب (٤) انفسهم وقوى عزمهم . وكر الى الامير تاشفين من اعلمه ان الروم مالت الى التحصن في جبل القصر فأخذ الى الجبل فتعلقت الخيل به ترهقه وتصيب منه وقد شرع القتل في الروم ، فهالهم الامر وترددوا (٥)

(١) انظر نظم الجمان : ٢١٠
(٢) خبر هذه الغزوة في الحلل الموشية : ١٠١ وما بعدها .
(٣) الحلل : لا يتعذر منا
(٤) المطبوعة : أصاب
(٥) المطبوعة : وتردى

أخذاً في غير طريق وأخذ الروم الضرب الى عدة اميال فأتى على جلهم القتل وأفلت النزر وامتلأت ايدي المسلمين من دوابهم واسلحتهم وفكت اغلال الاسارى وصرفت الاغنام الى البلاد النازحة والاقطار الشاسعة وكاد هذا يربي على ما تقدم من نظرائه لاستئصال هذه الشوكة المؤلفة والحية القاتلة ؛ وصدر تاشفين الى قرطبة وقد صنع الله له كأفضل ما عوده .

واقبل عيد الفطر ، فانشدته الشعراء فقال الفقيه ابو بكر يحيى بن محمد ابن يوسف من قصيدة طويلة :

عرفت والليل مزور على الأفق ... خفيّ مسراكِ في الظلماء والغسق
يا بانةً كلما افترّ الصباح لنا ... القى النسيم عليها نفس معتبق

ومنها :

لا تعدلن تاشفين ... ملكاً ... طعانه وعطاياه على نسق

ومنها :

يا اكرم الناس عفواً عند مقدرة ... واجمل الناس في خَلْق وفي خُلُق
قد نافس العيد اعياداً لك اطردت ... على الفتوح اطراد الخيل في الطَّلَق
فاهنأ بعيدك من اعياد ذي ظفر ... له نظائر تأتي بعد في نسق
لا زال ملكك يعلو كعبه ابداً ... هامَ الملوك كما تعلو على السُّوَق

وكانت في هذه السنة احداث أعرضنا عنها لئلا يطول الكتاب بها .

وفي هذه السنة أغزى الرومَ سعد بن مردنيش صاحب افراغة وابن غانية صاحب بلنسية ومرسية وذلك انه أحس بنفاد القوت في مكناسة أحد حصون شرق الاندلس استدعى من طرطوشة ولاردة والحصون المجاورة لهم فنازل مكناسة وصار بذلك الى يحيى بن علي بن غانية ، ونظر روم سرقسطة في توصيل الميرة الى مكناسة فلما شارفوها دبّ الرعب في قلوبهم فتركوا الميرة وفرّوا بأنفسهم ولحق ابو زكرياء يحيى بن علي بن غانيه ففرق من بمكناسة وتشوف صاحبها لنبهته وحماية الأمان فنزل عنها ، فوفى لهم ابو زكرياء وأصحبهم

شيعة الى مأمنهم وانتقل من فوره الى تلك الحصون المجاورة لمكناسة فافتتحها بفعل اهل مكناسة وانقضت غزوته بفتح عدة حصون منيعة المعاقل .

وفي سنة احدى وثلاثين اخذ الأمير تاشفين في الحركة عن الأندلس الى حضرة ابيه وذلك بعد ما وصله خطاب والده مستأذناً له في تجديد العهد به، وكان علي بن يوسف اعتل في السنة الفارطة وارتبك في مرضه حتى أرجف به فساءت الظنون وتمكن الجزع ببلاد الأندلس ، فلما وصله الخطاب المذكور تلقى ذلك بالقبول ونزع في القفول الى مراكش ، فكان من امره ما يذكر في موضعه ان شاء الله تعالى؛ هكذا ذكر ابو بكر بن محمد . وقال ابن حمادة: اغزى تاشفين الروم في ربيع من عام احد وثلاثين وفتح حصوناً للروم (١) .

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، قال ابن حمادة : كان السيل العظيم بطنجة حمل الديار والجدر ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة (٢) اجتمع عسكر المرابطين مع اميرهم تاشفين بن علي مع عسكر عبد المؤمن بن علي ببلد منانة بموضع بني ملول (٣) فكانت بينهم محاربة عظيمة شهراً كاملاً وثلاثة ايام انجلت عن هزيمة تاشفين فاتبعه عبد المؤمن الى ايمى تانورت (٤) وأخذ عبدالمؤمن بلاد منانة ، وكان تاشفين قد ارسل الى جزولة ليغيثوه فلما وصلوا اليه وجدوا الهزيمة عليه فضربت جزولة على آخر عسكر عبدالمؤمن طمعاً ان تكون له ، فكرت عليهم عساكر عبدالمؤمن فقتلت جزولة عن آخرهم واخذ دوابهم واسلحتهم وكانوا آلافاً من الفرسان والرجالة ، ولم يبقَ منهم الا الاقل .

(١) ذكر صاحب روض القرطاس ان تاشفين غزا سنة ٥٣١ كركي ودخلها وان اجتيازه عائداً الى مراكش تم سنة ٥٣٢ .

(٢) انظر نظم الجمان : ٢٤١

(٣) في المطبوعة : يلول

(٤) في ابن القطان : الميز تانورت

ذكر وفاة سير

وفي هذه السنة توفى الامير ابو محمد سير بن امير المسلمين علي بن يوسف ولي عهد أبيه . وقد تقدم القول في ولاية تاشفين الاندلس انه لما شاع ذكره فيها كبر ذلك على اخيه سير فتسبب في عزلته عنها فوصل تاشفين مراكش وصار يتصرف بأمر أخيه ويقف على بابه كأحد حجابه . وكان سير يركن للراحة ويصطحب أهل الفكاهة فاقتحم ليلاً على أخيه عمر (١) في داره فضربه وقضى عليه فمات رحمه الله ، وقيل غير هذا ، والله اعلم بذلك . وذكروا ان والدة سير هي التي غارت بأخيه تاشفين لئلا يكبر على ابنها ويتملك في بلاد الاندلس فكانت سبب عزلته ووصوله . قال الوراق في المقباس : فكان الذي خافت... من تاشفين ... ولما مات سير بن علي فاوضت امه قمر اباه فيمن يوليه عهده [دون] تاشفين ، فقالت له : ابنك اسحق وكانت امه قد ماتت وتركته صغيراً فربته قمر أم سير فكان لها كابنها فقال علي بن يوسف : «هو صغير السن لم يبلغ الحلم ولكني اجمع الناس في المسجد الجامع من اهل مراكش خاصة وعامة وأخبرهم في ذلك. فان صرفوا الخيار اليّ فعلت ما اشرت اليه».

ذكر ولاية العهد لتاشفين بن امير المسلمين
علي بن يوسف بن تاشفين

ولما مات سير بن علي ولي عهد ابيه طلب اشياخُ المرابطين من علي بن يوسف في ان يولي ولي عهد فقال لهم: « اجتمعوا واختاروا لانفسكم واتفقوا على من

(١) في المطبوعة تاشفين وهو خطأ واضح، وقد صرح ابن القطان بالحادثة على نحو أوضح فقال: « ودخل متسوراً على اخيه عمر يريد زوجته ، فجرح جراحة عجلت منيته » . وعند ابن الخطيب (١ : ٤٥٥) فقضى الله وفاة سير على الصورة القبيحة .. الخ ».

يرضونه » وقصد بذلك التوثيق في أمر تاشفين ، فلما اجتمع الناس في المسجد الجامع الكبير بالسقاية بمراكش حرسها الله تعالى خاصة وعامة وتشاوروا في من يختارون ومن عليه يجتمعون فقالوا كلهم بصوت واحد: « تاشفين . تاشفين » فلم تعط السياسة لأبيه مخالفتهم فيه ، فعقد له الولاية بعهده ، ونقش اسمه في الدنانير والدراهم مع اسمه ، وقلده النظر في الامور السلطانية فاستقل بذلك وكتب الى العدوة والاندلس وبلاد المغرب في بيعته فبايعوه ووصلت البيعات من كل الجهات مؤرخة برجب الفرد عام ثلاثة وثلاثين وخمسمائة .

وفي سنة اربع وثلاثين وخمسمائة خرج تاشفين بعسكر كبير من لمتونة والحشم وزناتة لقتال الموحدين ومعه جمع من النصارى مع قائدهم الربرتير (١) فبقي يحاربهم نحو شهرين ثم رجع الى مراكش ورجع الموحدون الى تينمل وانجلت الحرب على قتلى من الفريقين ؛ وقال ابن حمادة : يوم الاربعاء لثمان خلون من شوال التقى تاشفين مع الموحدين وقتل له خلق كثير وحينئذ رجع الى مراكش .

وفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة خرج جيش اللمتونين من مراكش مع الحشم والروم فالتقى مع الموحدين بجبل جذميرة فهزمهم واتبعهم حتى وصل فج طرودنت فالتقى الجمعان وتحارب الفريقان فكانت للموحدين على اللمتونيين ورجعوا الى مراكش خاسرين وقائد الروم اللعين مجروح ورجع الموحدون مع عبد المؤمن الى تينمل . ثم خرج جيش اللمتونيين مع قائد الروم المذكور فالتقى مع الموحدين فحاربهم ودخل الموحدون الى السوس فبنوا اسنجرو بالحجر والطين ورجع عنه جيش المتونيين وغنم الموحدون بعض بلاد السوس ورجعوا الى تينمل .

وفي هذه السنة انجلى اهل المغرب انجلاء عظيماً الى الاندلس ذكر ذلك ابن حمادة.وذكروا ايضاً ان محاربة اللمتونيين مع الموحدين انما كانت في سنة اربع

(١) Reverter وهو قائد الفرقة الرومية في جيش المرابطين .

وثلاثين وفيها تحرك عبد المؤمن من بلاد المصامدة الى الغرب وطالت غيبته الى سنة احدى واربعين على ما نذكر ان شاء الله تعالى .

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة قال ابن حمادة : وصل الموحدون الى ريف سبتة ثم الى تيطاون ثم رجعوا الى غمارة .

وفي هذه السنة خرج تاشفين بعساكره لتتبع الموحدين. قال البيذق وغيره: رحل عبد المؤمن بن علي من تينمل برسم التوجه الى بلاد الغرب سنة خمس وثلاثين وقيل في اواخر اربع ، فما زال يرحل من موضع الى موضع والقوم ترد عليه والقبائل من كل جهة تصل اليه الى ان وصل تاجرجرت بني وابوط فصرف [الامام ..] ابن زجو بجيش فغنم صفروي في منتصف محرم من [سنة] ست [و] ثلاثين . قال (١) :وفي هذه السنة اكل وادي فاس باب السلسلة وفتقت جزيرة مليلة وأكل البحر طنجة الى الجامع الكبير واكل وادي سبو أخبية لمتونة وكان عبد المؤمن اذ ذاك في غيّاتة وبلغ الشعير في ذلك الوقت ثلاثة دنانير للسطل ، وكان تاشفين بمحلته على فاس .

قال ابو مروان الوراق (٢) : وقد كان امير المسلمين علي بن يوسف امل في ابنه تاشفين ما لم تكن الاقدار تساعده . وجاءت الايام بخلاف ما امل فيه فتشاءم به وعزم على خلعه وصرف عهده الى ولده الاصغر اسحق، ووجه الى عامله على اشبيلية عمر ان يصل اليه ليجعله شيخ ابنه ومدبر امره واخذ في العزم على ذلك الى ان وافاه خبر أمضّه واقلقه ولم يمهله الى ان يستتم تدبيره، فأمر عند ذلك تاشفين ان ينزعج لذلك فانزعج على غير أهبة للضرورة وأتبعه والده بمدده وما لم يمكن الخروج به من عجلته ، وذلك في هذه السنة المؤرخة . ولما وصل تاشفين في حركته هذه الى فاس ضرب محلته بظاهرها وكان وصوله اليها في اول زمن المشتى فروت الارض بنزول الغيث وتوالت الامطار والغيوم

(١) البيذق : ٩١

(٢) انظر هذا النص في الاحاطة ١ : ٤٥٥

وحملت الويدان واشتد البرد الى ان هلك كثير من عساكر تاشفين برداً وجوعاً لانقطاع الطرق عنهم . وكان اقامة تاشفين بظاهر فاس اياماً ، ثم رحل عنها ونزل بالنواظر من ناحية تازا وانتهى حال عسكر تاشفين حتى احرقوا السرج وصحاف العود، ولم تمسك أوتاد الاخبية لرخاوة الارض،وغرقت الدواب في مرابطها الى بطنها ، وكثر الموتى في الضعفاء فكانت شرائط الاخبية مربوطة في جيف الموتى وتوالى عليها المطر نحو خمسة عشر يوماً بلياليها ، ثم رفع الله ذلك عنهم بعد يأس من الدنيا ، ولم يزل تاشفين ينتقل في ارض المغرب من موضع الى موضع الى آخر هذه السنة. وقال البيذق : دخل عبد المؤمن مدينة المزمة فأخذه بها المطر (١) ثمانية ايام فسماها تاغروت [ان] والوط (٢) فقلعنا منها الى جبل تمسامان (٣) . فخرج ابن زجو بالعسكر فغنم مليلة واخذ فيها مائة بكر فقسمها عبد المؤمن على الموحدين نفعهم الله بذلك ، وكانت فيهم بنت ماكسن بن المعز صاحب مليلة وفاطمة بنت يوسف فأخذ عبد المؤمن بنت ماكسن وأخذ ابو ابراهيم فاطمة فعملوا آسماس (٤) ورحلوا الى ندرومة بلاد كومية ورحل الى موضع تاجرا وميز بها عسكره وهو قد تقوى امره وعظم شانه وذكره؛ فبعث ابن زجو الى جهة الساحل فأتى بغنائم وهران وترادفت الفتوحات من كل مكان ووصل الى عبد المؤمن زيري ابن ماخوخ الزناتي مطيعاً فبعثه الى غيّاثه فقبضوا عليه بنو مكود وقتلوه وحزوا رأسه [وحملوه إلى] فاس وعلق على باب السلسلة .

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة توفي امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين رحمه الله باتفاق قيل توفي لسبع خلون من رجب ولا شهر موته الا لخمس خلون من شوال فكانت مدته من حين قدمه أبوه سبعاً وثلاثين سنة وسبعة اشهر

(١) عبارة البيذق : فأخذنا بها الهواء .
(٢) كذلك عند البيذق : ٩٣ .
(٣) البيذق : تمس آمان .
(٤) عبارة البيذق : فأكلنا آسماس .

وقيل وتسعة اشهر بتقريب على خلاف في ذلك . واما حقيقة مدته بعد وفاة ابيه فستة وثلاثون سنة والاشهر المذكورة . وكان مولده يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الاول سنة ست وسبعين واربعمائة : فكان عمره احدى وستين سنة تقريباً. امه رومية وهي فاض الحسن وقيل قمر(١) صفته :معتدل القامة اسيل الوجه . وقال ابو مروان الوراق : كان مهلك علي بن يوسف بمراكش سنة سبع وثلاثين بعد ما بلغته أخبار امرضته واورثته هماً وغماً أثر في جسمه فالتزم فراشه .

ولما يئس من نفسه ، امر عند ذلك باخراج ابنه ابي بكر من مراكش وحمله الى الجزيرة الخضراء ليسجن بها لأنه خاف من خوضه في امور فاصاب ابا بكر في [سفره] مرض فكان الرجال يحملونه على اعناقهم ووصل المذكور الى الجزيرة فسجن بها ولم تطل مدته في محبسه هذا الى ان هلك (٢) .

ولما اشتد ألم علي بن يوسف وزادت علته عهد ان يدفن مع قبور عامة المسلمين فدفن بها في جملتهم وجددت البيعات لولي عهده تاشفين، وهو في أمره المتقدم ذكره ومتابعته لعبد المومن .

حكايـــة طريفة

واستوزر علي بن يوسف (٣) في آخر ايامه اسحق بن ينتان بن عمر بن ينتان وما بلغ عمره ثمانية عشر عاماً، وكان يتوقد ذكاء وعقلا وفهما،فأعجب به اعجابا كثيراً وجعل اليه النظر في المظالم والشكايا، فاتبع الناس في امورهم

(١) في روض القرطاس : امه أم ولد رومية اسمها قمر وتكنى أم الحسن .
(٢) كان أبو بكر هذا اكبر أبناء علي بن يوسف وقد حوّل أبوه العهد عنه أولاً إلى سير ، فسخط ذلك وتذمر ثم إلى تاشفين ، فاستاء أيضاً ، ومن أجل هذا عاقبه أبوه بحبسه في الجزيرة الخضراء ، وقد كان أبو بكر والياً على اشبيلية سنة ٥١٨ — ٥٢٢ .
(٣) انظر الحلل الموشية : ٦٨ - ٦٩ .

وكافة شؤونهم ، وكان مع ذلك في طبعه ومولده مثل كاهن : يأتي بغرائب من الاخبار ، ومما يؤثر عن هذا الفتى ان تاشفين بن علي بن يوسف قال له : « يا اسحق ان الناس تكلموا في امرك وخاضوا في حديثك وفي الذي يؤثر من المغيبات ، فمنهم من صدقك ، ومنهم من كذبك » فقال الفتى : « اختبرني واسألني عما شئت مما صنعته » . قال تاشفين : « قد غبت من امسك،أخبرني بما فعلتُهُ أمسِ بعد ما قمت من مجلسي هذا وفارقتك ودخلت داري » قال له : « دخلت دارك وجلست في مجلسك فقدم لك طبق فيه خوخ فتناولت واحدة وأكلتها حتى انتهيت على آخرها ثم تناولت أخرى فعضضت فيها عضة وصرفتها الى الطبق ثم قمت ، أفتحب ان اخبرك بما فعلت » قال له تاشفين : «اقطع الكلام ها هنا » . وجرى ذكره يوماً في مجلس علي بن يوسف فقال لهم قد عزمت على ان اختبره ولم يكن حاضراً في ذلك الخبر ثم قام علي بن يوسف ودخل ... فأخبره [القوم] اليوم تفتضح فيما تدعيه من علمك مع امير المسلمين. فقال لأهلِ ... أخبركم فقالوا «اخبرنا» فقال لهم: «قام بنفسه [يريد] ان يكتب بطائق فيها اسمي واسم امي فكتبها ووضعها في ثني الوسادة الى ان يحين خروجه فاذا حان ويريد ان يخرج خرج ... فيجعلها .. ويسألني عما خبأ لي فينساها عند خروجه ويخرج اليكم دونها فاذا رآني تذكر فيدعو بأحد عبيده ويساره في اذنه ان يخرجها اليه ويناوله اياها من كمه لئلا يطلع على ذلك»[فما لبث] ان خرج علي بن يوسف من داره ودخل مجلسه فلما وقعت عينه عليه دعا بالغلام فساره في الاذن ودخل الغلام الدار ثم خرج مسرعاً بالبطاقة فناوله اياها من كمه الى كمه فابتدر القوم وقالوا لعلي بن يوسف: «يا امير المسلمين ! قد اعلمنا بجميع ما اردت » وقصوا عليه الحديث كما كان حدثهم ، وقالوا له : « قد علمنا صدقه في كل ما يدعيه ويؤثر عنه » فعجب علي بن يوسف من ذلك.

وكان علي بن يوسف في آخر امره امتنع الاعطاء لاجناده حتى رجع اكثرهم يُكَرّون دوابهم ، وهو اول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين في مغامرتهم ، ويأخذون منهم في نفقاتهم ؟

واكثر ما يجب عليهم ، واضطربت عليه الامور من لدن ظهور المهدي فلم يستقم له حال حتى مات ، رحمه الله ، في هذه السنة .

وفي سنة ثمان وثلاثين وصلت قراقر المجوس في مائة وخمسين مركباً بين كبار وصغار الى سبتة فخرجت اليه اجفانها فتقاتلوا فقتل من الفريقين خلق كثير .

وفيها دخل الموحدون وجدة .

وفيها ظهر ليلة نجم عظيم في اقصى المغرب في ليلة سادس عشر لرمضان .

وانتقل تاشفين بمحلته الى تلمسان ونزل عبد المؤمن بمحلته بين الصخرتين بقربة منه ، وكانت بينهم حروب كثيرة يطول ذكرها .

وبعث (١) عبد المؤمن يوسف بن وانودين بعسكر الى مديونة فتلاقى مع جيش لمتونة ،خرج عليه من تلمسان ابو بكر بن الجوهر ومحمد بن يحيى بن فانوا فتلاقى العسكران بوادي الزيتون وتقابل الجمعان فقتل من الفريقين خلق كثير وفي اثناء ذلك وصلت محلة من بجاية لنصر تاشفين وذلك في سنة تسع وثلاثين برسم قتال الموحدين وقائدها ميمون بن المنتصر فهزمهم الموحدون من الصخرتين الى باب تلمسان وبعث القائد المذكور الى عبد المؤمن يعلمه بتوحيده سراً ويعلمه بفتح افريقية اذا فتح المغرب (٢) ، فكان ذلك كذلك على ما يأتي ذكره في موضعه ان شاء الله تعالى .

وفي سنة تسع وثلاثين خرج قائد الروم الربرتير بعسكره، ومعه عسكر لمتونة والحشم ، فهزمهم الموحدون وقتل القائد المذكور وتبدد عسكره (٣) . وكان تاشفين في سطسيف بمحلته فزادت الحرب بينه وبين الموحدين مدة من شهرين

(١) انظر البيذق : ٩٤ .
(٢) المصدر السابق : ٩٧ .
(٣) انظر البيذق : ٩٦ .

الى أن وصل ابن المنتصر من بجاية كما ذكرنا ، وهزمه الموحدون ووحد سر ووعد بفتح بجاية .

وفي هذه السنة قتل ابن زجو ورحل تاشفين من سطسيف ونزل على وهران فهرب ينجمار [1] اللمتوني يجمع الى الصحراء وهرب ابن زنجي [2] الى الغرب وبقي تاشفين بعسكر مشتت ، والقايد ابن ميمون في الاسطول في البحر برسم أن يطلع تاشفين فيها ان رأى ما لا طاقة له من قتال الموحدين فلم يقدر الله. وخرج عسكر من الموحدين واتباعهم لقتال تاشفين، قود عليه عبدالمؤمن أباحفص فهزم عسكر تاشفين وتبعه وأحاط به وحصره ، فخرج تاشفين فاراً بنفسه يريد الدخول في القطايع ، فبينما هو سائر على فرسه في الليل اذ صادف حافة حاف منها ومات – رحمه الله [3] – ، فلما أصبح وجده الموحدون ميتاً في تلك الحافة ، فقطعوا رأسه وبعثوا به الى عبدالمؤمن فصبّره ووجهه الى تينمل. وقتل من أصحاب تاشفين خلق كثير وفرّ منهم جمع كبير ولم يبق منهم بعد ذاك إلا سيد الملوك السدراتي .. تقدم له فعفا عنه .

وذكر ابن حمادة في مقتل تاشفين ايضاً قال : انه كان ليلة سبع وعشرين من رمضان من سنة تسع وثلاثين المذكورة وصل تاشفين بن علي من تلمسان الى قرب وهران فاتبعه عسكر الموحدين وحصروه وضيقوا عليه وأطلقوا النيران في محلته، فلما رأى ما لا طاقة له به وعلم انه مأخوذ خرج هو وبعض أصحابه على فرسه ففرّ كل واحد منهم على طريقه ، فمنهم من قتل ومنهم من حصل في القطائع ؛ وحاف تاشفين من حافة عظيمة وهلك ، ووجد ميتاً وذلك ليلة سبع وعشرين المذكورة ،

---

(١) البيذق : انكمار ،
(٢) البيذق : ونكي .
(٣) البيذق ، فبينما هو سائر على فرسه اذا بحافة فتركته فرسه في تلك الحافة ، وانظر الحلل الموشية : ١١٠ .

ثم ولي لسحق بن علي بن يوسف ، وذلك انه لما مات تاشفين على ما ذكر بعض المؤرخين بويع لابنه ابراهيم بن تاشفين فطلع عليه اسحق الى مراكش فنقض بيعته ودعا لنفسه ووقع الخلاف والتدابر بينهم الى انقطاع دولتهم ودخول الموحدين عليهم على ما اذكره ان شاء الله ملخصاً في موضعه [1] .

وفي هذه السنة ظهرت في الاندلس دعوة الموحدين، فأول من قام بدعوتهم فيها أهل مارتلة [2] في السابع عشر من ربيع الاول ، ثم خالفت بعد ذلك طلياطة [3] على المرابطين ودخلت في دعوة الموحدين .

تلخيص التعريف بتواريخ من ولي اشبيلية من مشاهير اللمتونيين المرابطين من حين استيلائهم عليها الى انقراض دولتهم [4]

فأول من وليها بعد خلع المعتمد بن عباد عنها بتقديم امير المسلمين يوسف ابن تاشفين الامير سير – رحمه الله – فوليها سير المذكور في رجب الفرد من سنة اربع وثمانين واربعمائة ، وتوفي على مقربة من اشبيلية وهو زافاً بنته فاطمة ومشيعاً لزوجه حواء بنت تاشفين وقد تقدم خبرها في السنة المذكورة ، فكانت وفاته فجأة في ذي القعدة من سنة سبع وخمسمائة فكانت مدة ولايته بها ثلاثاً وعشرين سنة .

---

(١) عهد تاشفين الى ابنه ابراهيم وهو مقيم بوهران ووجهه الى مراكش قبل وفاته بشهر ، فبويع فيها ، لكن عمه اسحق بن علي خالف عليه ونقض بيعته . ولما حاصر عبد المؤمن مدينة مراكش سنة ٥٤١ اشتد الحصار على اهلها كثيراً ، حتى استسلمت الفرقة الرومية لعبدالمؤمن وامتنع في القصبة ابراهيم مع المرابطين ، واستمر القتل ، وأخذ ابراهيم ومن معه أسرى فقتلوا وبموته انقرضت دولة الملثمين (الحلل ١١٠ – ١١٥).
(٢) مارتلة (Mertola) :على نهر وادي آنة من كورة باجة (في البرتغال) .
(٣) طلياطة (Tejada) تقع الى الشمال الغربي من اشبيلية (على بعد ٣٠ كيلومترا) .
(٤) قارن بالجدول الذي اورده صاحب مفاخر البربر : ٨١ فهناك اختلاف واضح عما اورده بن عذارى .

ثم وليها يحيى بن سير بن ابي بكر في ذي الحجة من عام سبعة وخمسمائة وعزل عنها في ذي الحجة ايضاً عام ثمانية وخمسمائة فكانت ولايته سنة واحدة.

ثم وليها عبدالله بن فاطمة[2] الشهير بالنيولان في محرم [سنة تسع وخمسمائة] وتوفي بها في رمضان المعظم من عام احدى عشرة وخمسمائة فكانت ولايته ...

ثم وليها ابراهيم بن يوسف بن تاشفين [3] بعد ولايته سبتة ووليها في شوال عام احدى عشرة وخمسمائة وعزل عنها في جمادى الاولى عام ستة عشر وخمسمائة فكانت ولايته لها اربعة اعوام وتسعة اشهر .

ثم وليها تميم بن يوسف بن تاشفين فوليها الامير تميم بعد ولايته اغرناطة في جمادى الثانية عام ستة عشر وخمسمائة وعزل عنها في ذي الحجة عام سبعة عشر وخمسمائة فكانت ولايته الى ان عزل سنة واحدة واربعة اشهر .

ثم وليها ابو بكر بن علي بن يوسف فكانت ولايته الى ان عزل اربعة اعوام وخمسة اشهر اولها محرم ثمانية عشر وخمسمائة وآخرها رجب عام اثنين وعشرين وخمسمائة .

ثم وليها عمر بن سير فكانت ولايته الى ان عزل خمسة أشهر اولها شعبان وآخرها ذو الحجة عام اثنين وعشرين وخمسمائة .

---

(٢) لعبدالله بن فاطمة دور كبير في تاريخ المرابطين بالاندلس منذ سنة ٤٩٥ حين اشترك في استنقاذ بلنسية من يد دونا خيمينا (زوجة السيد) ، ثم ولي بلنسية حتى سنة ٥٠٣ ثم نقل الى فاس ومن بعد تولى اشبيلية ٥٠٩ - ٥١١ .

(٣) ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ابو اسحاق (ويعرف بابن تغيشت أو تاغيشت وهو اسم امه) ولي مرسية بعد ابن عائشة الذي اعتل بصره بعد غزوة البورت سنة ٥٠٧ وعمي ، ثم نقل منها الى اشبيلة (المعجم : ٥٥)

ويبدو أنه ظل في الاندلس بعد سنة ٥١١ اذ يقول ابن الأبار ان علياً أخاه نكبه سنة ٥١٥ بعد تقصير له جر الى موقعة كتندة في السنة السابقة ؛ وقد كان له دور في الحروب ضد الموحدين، وفيها قتل علي طريق سجلماسة ، وكان معتنياً بالعلوم والآداب ومن مداحه ابن خفاجة والفتح الذي ألف له كتاب قلائد العقيان .

ثم وليها يحيى بن مقوز فكانت ولايته الى عزل عاماً واحداً وشهرين اثنين اولها محرم عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة وآخرها صفر عام اربعة وعشرين وخمسمائة .

ثم وليها عمر بن مقوز فكانت ولايته الى ان قتل عامين وثلاثة اشهر اولها ربيع الاول عام اربعة وعشرين وخمسمائة وآخرها رجب عام ستة وعشرين وخمسمائة .

ثم وليها عبدالله بن ابي بكر بن تاشفين فكانت ولايته الى ان قبض عليه وحبس في القصر شهرين اثنين اولها شعبان المكرم وآخرها شوال المعظم وكلاهما في عام ستة وعشرين وخمسمائة .

ثم وليها الامير تاشفين بن علي بن يوسف فكانت ولايته الى أن عزل سنة واحدة اولها شوال عام ستة وعشرين وخمسمائة وآخرها رمضان عام سبعة وعشرين وخمسمائة .

ثم وليها ينتان بن علي الذي كان والي بلنسية فكانت ولايته الى ان عزل سنة واحدة وستة اشهر اولها شوال عام سبعة وعشرين وخمسمائة وآخرها صفر عام تسعة وعشرين وخمسمائة .

ثم وليها ابو زكرياء يحيى بن اسحق فكانت ولايته الى ان عزل تسعة اعوام وعشرة اشهر اولها ربيع الاول عام تسعة وعشرين وخمسمائة وآخرها ذو حجة عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة .

ثم وليها ابو بكر بن مزدلي في شهر محرم عام تسعة وثلاثين وخمسمائة ، فظهرت في الاندلس دعوة الموحدين بالعام المذكور وقام اهل مارتلة بدعوة المهدي في السابع عشر لربيع الاول عام تسعة وثلاثين وخمسمائة وخالفت بعد ذلك طلياطة على المرابطين وكذلك جميع الغرب الى أن صارت اكثر بلاد الاندلس في طاعة الموحدين .

وفي سنة اربعين وخمسمائة تغلب الموحدون على اللمتونيين المرابطين وأخرجوهم من بعض البلاد المغربية على ما أذكر في دولتهم ان شاء الله تعالى: ثم في سنة احدى وأربعين وصل ابو محمد عبد المؤمن ... ودخل أغمات دون قتال وفي [سنة ٥٤١] دخل الموحدون مراكش .وقتل اسحق بن علي بن يوسف ومن كان معه .

ملحقات

الملحق « ١ »

أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، اللمتوني ، أمير المسلمين وملك الملثَّمين وهو الذي اختط مدينة مراكش [١]

ذكر أرباب التواريخ شيئاً من أحواله ، فاخترت في هــذا الكتاب مـا وجدته في كتاب « المغرب » عـن سيرة ملوك المغرب » ، لأنه أوعب في حديثه من غـيره لكنه لم يذكر مؤلفه حتى أذكره ، غير أنه قال في أول النسخة التي نقلت منها هذا الفصل: إنه كتبها في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وفرغ منها في ذي القعدة من السنة بالموصل ، وهي في مجلد واحـد لطيف ، فاخترت منه مقتضباً ما مثاله : كان بر المغاربة الجنوبي لقبيلة تسمى زَنَاتة ، فخرج عليهـم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان الملثَّمون يقدَمُهم أبو بكر بن عمر منهم ، وكان رجلاً ساذجاً خـير الطباع ، مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب ، غير ميال الى الرفاهية، وكانت ولاة المغرب من زناته ضعفاء لم يقاوموا الملثمين ، فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط .

فلمـا حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر المذكور سمع أن عجوزاً في بلاده ذهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت : ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى

---

(١) ترجمة يوسف بن تاشفين من كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ٦ : ١١١ وما بعدها .

بلاد المغرب ، فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ، ورجع إلى بلاده الجنوبية .

وكان يوسف هذا رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً ، اختط بالمغرب مدينة مراكش وكان موضعها مكمناً للصوص ، وكان ملكاً لعجوز مَصْمُودية . فلما تمهدت البلاد له تاق الى العبور الى جزيرة الاندلس ، وكانت مُحَصَّنة بالبحر ، فأنشأ شواني ومراكب ، وأراد العبور اليها ، فلما علم ملوك الاندلس بما يروم من ذلك اعدوا له عدة من المراكب والمقاتلة ، وكرهوا المامه بجزيرتهم ، الا انهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته ، وكرهوا ان يصبحوا بين عدوين : الفرنج من شمالهم والملثمون من جنوبهم ، وكانت الفرنج تشد وطأتها عليهم ، الا ان ملوك الاندلس كانت ترهب الفرنج باظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف ابن تاشفين ، وكان له اسم كبير لنقله دولة زَناتة وملك المغرب اليه في اسرع وقت .

وكان قد ظهر لابطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس ، وطعنات تنظم الكُلى ، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم .

وكان ملوك الاندلس يفيئون الى ظل يوسف بن تاشفين ، ويحذرونه على ملكهم مهما عبر اليهم وعاين بلادهم ، فلما رأوا عزيمته متقدمة على العبور ارسل بعضهم الى بعض، وكاتبوهم يستنجدون آراءهم في امره ، وكان مفزعهم في ذلك الى المعتمد بن عباد ؛ لانه كان اشجع القوم واكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم على مكاتبته ، وقد تحققوا انه يقصدهم ، يسألونه الاعراض عنهم ، وانهم تحت طاعته ، فكتب عنهم كاتب من اهل الاندلس كتاباً ، وهو هذا :

« اما بعد ، فانك ان اعرضت عنا نُسِبْتَ الى كرم ، ولم تنسب الى عَجْز ، وان اجبنا داعيك نسبنا الى عقل ولم ننسب الى وهم ، وقد اخترنا لانفسنا اجمل نسبتنا فاختر لنفسك اكرم نسبتك ، فانك بالمحل الذي لا يجب

ان تسبق فيه الى مكرمة وان في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لامرك وثبوت ، والسلام » .

فلما جاءه الكتاب مع تحف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي ، ولكنه كان يُجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فقال له : أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك ألا تجعلهم في منزلة الأعادي ، فانهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات ؛ فلا تغير بهم ، وكفى بهم مَنْ وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب . فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها الملك ، اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يرد بأنه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفى ، وأن يهب إذا استوهب ، وكلما وهب جزيلا كان أعظم لقدره ، فاذا عظم قدره تأصل ملكه ، وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، واذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجشم المشقة اليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته . واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد. فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على يوسف بن تاشفين بلغته فهمه ، وعلم أنه صحيح ، فقال للكاتب : أجب القوم ، واكتب بما يجب في ذلك ، واقرأ عليّ كتابك ، فكتب الكاتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم ، وسلم إليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا باصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام ». فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه ، وقرن به يوسف بن تاشفين درقاً لمطية مما لا يكون إلا في بلاده (قلت : اللمطية–بفتح

اللام،وسكون الميم،وبعدها طاء مهملة، ثم ياء مشددة مثناة من تحتها ، وبعدها هاء ساكنة – هذه النسبة الى لمطة ، وهي بليدة عند السوس الأقصى ، بينها وبين سجلماسة عشرون يوماً ، قاله ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك ، وهي معدن الدرق اللمطية ، ولا يوجد مثلها في الدنيا على ما يقال ، والله أعلم) وأنفذ ذلك إليهم .

فلما وصلهم كتابه أحبوه وعظموه وفرحوا به وبولايته ملك المغرب ، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج ، وازمعوا إن رأوا من ملك الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ، ويكونوا من أعوانه على ملك الفرنج ، فتحصل ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له ، وكفاه الحرب لهم .

وإن الأذفونش بن فرذلند صاحب طليطلة قاعدة ملك الفرنج أخذ يجوس خلال الديار ، ويفتتح بلاد الأندلس ، ويشتط على ملوكها بطلب البلاد منهم ، وخصوصاً المعتمد بن عباد ، فانه كان مقصوداً فيه ، ..... فنظر المعتمد في أمره فرأى أن الأذفونش قد داخله طمع فيما يلي بلاده ، فأجمع أمره على استدعاء يوسف بن تاشفين على العبور ، على ما فيه من خطر وعلم أن مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبوار ، وأن الفرنج والملثمين ضدان له إلا انه قال : إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر الملثمين ، ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحبّ إلينا من أن يرعوا خنازير الفرنج ، ولم يزل هذا الرأي نصب عينيه مهما اضطر إليه .

وإن الأذفونش خرج في بعض السنين يتخلل بلاد الأندلس بجمع كبير من الفرنج ، فخافه ملوك الأندلس على البلاد ، وأجفل أهل القرى والرساتيق من بين يديه ولجأوا إلى المعاقل ، فكتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يقول له : إن كنت مؤثراً للجهاد فهذا أوانه،فقد خرج الأذفونش إلى البلاد،

فأسرع في العبور إليه ، ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك .

وكان يوسف بن تاشفين على أتم أهبة ، فشرع في عبور عساكره ، فلما أبصر ملوك الأندلس عبور أهل المغرب يطلبون الجهاد ، وقد كانوا وعدوا أنفسهم بالمساعدة ، أعدوا أيضاً للخروج . فلما رأى الأذفونش اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح ، فاستنفر الفرنجة للخروج ، فخرجوا في عدد لا يحصيه إلا الله تعالى ، ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلا ورَجْلا من الفريقين ، كل أناس قد التفوا على ملكهم فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها ، فأمر بعبور الجمال ، فعبر منها ما أغصّ الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملا، ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق ، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب، كان يحدق بها عسكره ، وكان يحضرها الحرب فكانت خيل الفرنج تحجم عنها .

فلما تكامل العساكر بالجزيرة قصدت الأذفونش ، وكان نازلاً بمكان أفْيَحَ من الأرض يسمى الزلاّقة بالقرب من بَطَلْيَوْسَ ، قال البياسي : بين المكانين أربع فراسخ .

وقال أيضاً : إن يوسف بن تاشفين قدم بين يدي حربه كتاباً على مقتضى السنة يعرض على الأذفونش الدخول في الاسلام أو الحرب أو الجزية ، ومن فصول كتابه : وبلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك ، وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه الفرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه جاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه ، وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه .

ثم إن ابن تاشفين ومن معه قصدوا الزلاقة ، فلما وافاها المسلمون نزلوا

تجاه الفرنج بها فاختار المعتمد بن عباد أن يكون هو المصادم لهم أولاً ، وأن يكون يوسف بن تاشفين إذا انهزم المعتمد بعسكره بين أيديهم وتبعوه ، يميل عليهم بعساكره ، وتتألف معـه عساكر الأندلس ، فلما عزموا على ذلك وفعلوه خذل الفرنج وخالطتهم عساكر المسلمين ، واستحر القتل فيهم ، فلم يفلت منهم غير الأذفونش في دون الثلاثين من أصحابه ، فلحق ببلده على أسوأ حال، فغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاثه ما ملأ أيديهم خيراً .

قلت : وكانت الوقعة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وقيـل : في شهر رمضان في العشر الأواخر من السنة ، والله أعلم .

وقال البياسي : كان حلول العساكر الاسلامية بالجزيرة الخضراء في المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، فحكي أن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جمعت الغنائم ، فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين ، وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف بن تاشفين لهم بالغنـائم استكرموه وأحبوه وشكروا له .

ثم إن يوسف بن تاشفين أزمع الرجوع إلى بلاده ، وكان عند قصده ملاقاة الأذفونش تحرّى المسير بالعراء ، من غير أن يمرّ بمدينـة أورستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأذفونش ، وهناك اجتمع بعساكر الأندلس .

وذكر أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي في كتاب « تذكير العاقـل وتنبيه الغافل» أن ابن تاشفين ، نزل على أقل من فرسخ من عسكر العـدو في يوم الاربعاء ، وكان الموعد في المناجزة يوم السبت الأدنى ، فغدر الأذفونش ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب من العام أقبلت طلائـع ابن عباد والروم في أثرها ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب،

وأثبت الخبر في العساكر فماجت بأهلها ، ووقع النهب ، ورجفت الأرض ، وصارت الناس فوضى على غير تعبية ، ولا أهبـة ، ودهمتهم خيلُ العـدو ، فغمرت ابن عباد ، وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض حصيداً خلفها ، وصرع ابن عباد ، وأصابه جرح أشواه ،وفر رؤساء الأندلس ، وأسلمـوا محلاتهم ، وظنوا أنها داهية لا ترفع ، وظن الأذفونش أن امير المسلـمين في المنهزمين ، ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين وأحدق به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائـل ، فعمدوا إلى محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها ، وقتلوا حاميتها ، وضربت الطبول، فاهتزت الارض، وتجاوبت الآفاق ، وتراجعت الروم الى محلتهم بعد ان علموا أن امير المسلمين فيها ، فقصدوا امير المؤمنين ، فأفرج لهـم عنها ، ثم كر فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها ، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر امير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف، ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان ، فطعنوا الخيل ، فرمحت بفرسانها، وأحجمت عن أقرانها ، وتلاحق الأذفونش بأسود فدق مزاريقـه بالدف ، فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على أعنته ، وانتضى خنجراً كان منتطقـاً به ، فأثبته من فخذه ، فهتك حلق درعه ، وشك فخذه مـع بداد سرجه ، وكان وقت الزوال من ذلك اليوم ، وهبت الريـح بالنصر ، وأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونصر دينه ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهـورهم ، وأعطوا أعناقهـم ، والسيوفُ تصفعهم إلى أن لحقوا بربوة لجأوا اليها واعتصموا بهـا ، وأحدقت بهم الخيل ، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة ، وأفلتـوا بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضارب والاسلحة ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس القتـلى من الروم ، فنشر منها أمامه كالتل العظيم ، ثم كتب ابن عباد الى ولده الرشيد كتاباً ، وأطار به الحمَام يوم السبت سادس عشر المحرم يخبره بالنصر .

وقد روى أيضاً أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المعونة على ما هو بصدده ، فوصل كتابه إلى المرية في هذا المعنى ، وذكر فيه أن جماعة أفتوه بجواز طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أهـل المرية لقاضي بلدهم وهو أبو عبد الله بن الفراء ، أن يكتب جوابه ، وكان هـذا القاضي من الدين والورع على ما ينبغي ، فكتب إليه : أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة ، وتأخري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعُدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله ﷺ وضجيعه في قبره ، ولا يشك في عدله ، فليس أمير المؤمنين بصاحب رسول الله ﷺ ، ولا بضجيعه في قبره ، ولا مَنْ لا يشك في عدله ، فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ وحلف أن ليس عنده درهم واحد في بيت للمسلمين ينفقه عليه . فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذ تستوجب ذلك ، والسلام .

ولما قضى أمير المسلمين من هـذه الوقعة ما قضى أمر عساكره بالمقام ، وأن تشن الغارات على بلاد الفرنج، وأمر عليهم سير بن أبي بكر، وطلب الرجوع في طريقه ، فتكرم به ابن عباد ، فمرج به إلى بلاده، وسأله أن ينزل عنده، فأجابه يوسف إلى ذلك ، فلما انتهى يوسف إلى إشبيلية مدينة المعتمد ، وكانت من أجمل المدن منظراً ونظر إلى موضعهـا على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بلاد المغرب وحامـلة إليه ، في غربيه رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون ، وهـذا الموضع هو المسمى شرف إشبيلية ، وتمير بلاد المغرب كلها من هـذه الأصناف ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيـه المعتضد في غايـة الحسن والبهاء ، وفيهـا أنواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك ، فأنزل

المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها ، وتولى من إكرامـه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين ، وكان مع ابن تاشفـين أصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال وما هو عليه من النعمة والإتراف ، ويُغْرُونه باتخاذ مثلهـا لنفسه ، ويقولون : إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه ، وكان يوسف بن تاشفين مقتصداً في أموره غير متطاول ولا مبذر متنوق في صنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها ، وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شَظَف العيش ، فأنكر على مُغريه بذلك الاسراف ، وقال : الذي يلوح من أمر هذا الرجل – يعني المعتمد – أنه مضيع لما في يديه من الملك ، لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً ، فأخذه بالظلم ، وأخرجه في هذه الترهات ، وهذا من أفحش الاستهتار ، ومن كانت همته في هـذا الحد من التصرف فيما لا يغذو إلا جوفين متى تستنجد همته في حفظ بلاده وضبطهـا وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها ؟

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاتـه : هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات ؟ فقيل : لا ، بل كل زمانه على هذا، قال : أفكل أصحابه وأنصاره على عدوّه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك ؟ قالوا : لا ، فقـال : كيف ترون رضاهم عنه ؟ قالوا : لا رضا لهم عنه ؛ فأطرق يوسف وسكت ؛ فأقام يوسف عند المعتمد على تلك الحـال أياماً ، وفي بعض تلك الأيام استأذن رجل على المعتمد ، فدخل وهو ذو هيئة رثة ، وكان من اهل البصر ، فلما دخل عليه قال له : أصلحك الله ايها الملك إن من أوجب الواجبات شكر النعمة، وإن من شكر النعمة اهداء النصائح، وإني رجل من رعيتك حـالي في دولتك الى الاختلال ، اقرب منهـا الى الإعتدال ، لكني ملتزم لك من النصيحة ما يستوجبه الملك على رعيتـه ، فمن ذلك خبر وقـع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك ، وقـد رأيت

رأياً فان آثرت الإصغاء إليه قلته ، قال له المعتمد : قله ، قال : رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك رجل مستأسد على الملوك ، قد حطم ببر العدوة زناتة وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يبق على أحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطماعية في ملكك ، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها بما قد عاينه من بلهنية عيشك ، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس ، وإن له من الولد والأقارب ممن يؤثر مسراتهم من يود له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب ، وقد أودى الأذفونش وجيشه ، واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد ، وأوقى مجن ، وبعد أن فات الأمر في الأذفونش لا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم ، قال له المعتمد : وما هو الحزم اليوم ؟ قال : أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك ، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من هو بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم بالجزيرة طفل ، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه بغزاة له ، ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه وتأخذ منه على ذلك رهائن ، فانه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فنفسه أعز عليه من جميع ماتلتمس منه ، فعند ذلك يقنع هذا الرجل ببلاده ، التي لا تصلح إلا له ، وتكون قد استرحت منه بعد ما استرحت من الأذفونش ، وتقيم في موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الاندلس وأهل الجزيرة ، ويتسع ملكك ، وتنسب بهذا الاتفاق إلى سعادة وحزم ، وتهابك الملوك ، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في محاورة من عاملته هذه المعاملة ، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله . فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه ، وجعل يفكر في انتهاز هذه الفرصة ، وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات ، فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح : ما كان المعتمد على الله — وهو إمام أهل المكرمات — ممن يعامل

بالحيف ، ويغدر بالضيف ، فقال له الرجل : إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه ، لادفع الرجل عن نفسه المحذورَ إذا ضاق به ، فقال ذلك النديم : لضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء . ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه ، فشكر به المعتمد ووصله بصلة ، وانصرف ، واتصل هذا الخبر بيوسف بن تاشفين ، فأصبح غادياً ، فقدم له المعتمد الهدايا السنية والتحف الفاخرة ، فقبلها ، ثم رحل فعبر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة .

قلت : وهو المكان المعروف بزقاق سبتة يعدي الناس فيه من أحد البرين إلى الآخر ، أعني بر الأندلس وبر العدوة .

قال : ولما عبر يوسف إلى بر العُدْوَة أقام عسكره بجزيرة الأندلس ريثما استراح ثم تبع آثار الأذفونش ، فتوغل في بلاده ، ولما رجع الأذفونش إلى موضعه سأل عن أصحابه وشجعانه وأبطال عسكره ، فوجد أكثرهم قد قتلوا ، ولم يسمع نُوَاح الثكالى عليهم ، فلم يأكل ولم يشرب حتى مات هماً وغماً ، ولم يخلف إلا بنتا جعل الأمر إليها ، فتحصنت بمدينة طُلَيْطلة . وأما عسكر ابن تاشفين فانهم في غارتهم هذه كسبوا من الغنائم ما يحد ولا يوصف ، وأنفذوا ذلك إلى بر العدوة ، واستأذن أميرهم سير بن أبي بكر يوسف بن تاشفين في المقام بجزيرة الأندلس ، وأعلمه أنه قد افتتح معاقل في الثغور ورتب فيها مستحفظين ورجالاً يغنون فيها ، وأنه لا يستقيم لهذه الجيوش أن تقيم بالثغور في ضنك من العيش تصابح العدو وتماسيه ، وتحظى ملوك الأندلس من الأرزاق برَغَدِ العيش ، فكتب إليه ابن تاشفين يأمره باخراج ملوك الأندلس من بلادهم ، وإلحاقهم بالعدوة ، فمن استعصى عليه منهم قاتله ، ولا ينفس عنه حتى يخرجه ، وليبدأ منهم بمجاوري الثغور ، ولا يتعرض للمعتمد بن عباد ، ما لم يستول على البلاد ، ثم يولي تلك البلاد أمراءُ عساكره وأكابرهم ، فابتدأ سير بن أبي بكر بملوك بني هُود من ملوك الأندلس ليستنزلهم من معقلهم ، وهي روطة .

قلت : هي بضم الراء ، وسكون الواو ، ثم طاء مهملة ، بعدها هاء — قلعة منيعة من عاصمات الذرى ، ماؤها ينبع في أعلاها ،وكان بها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان .

فلم يقدر عليها فرحل عنها ، ثم جند أجناداً على صور الفرنج وأمرهم أن يقصدوا هذه القلعة مغيرين عليها ، ويكمن هو وأصحابه بالقرب منها ، ففعلوا ذلك ، فرآهم صاحب القلعة ، فاستضعفهم ، ونزل في طلبهم ، فخرج سير بن أبي بكر فقبض عليه وتسلم القلعة . ثم نازل بـني طاهر بشرق الأندلس ، فسلموا إليه ، ولحقوا بالعدوة . ثم نازل بني صمادح بالمريـة ، وكانت قلعتهم حصينة ، إلا أنهم لم يكن عندهم أجناد ولا أنجـاد من الرجال فزحفوا عليهم فغلبوهم ، فلما علم المعتصم بن صمادح أنه مغلوب دخل قصره فأدركه أسف قضى عليه ، فمات من ليلته ، فاشتغل أهله بـه ، فسلموا المدينـة . ثم نازلوا المتوكل عمر بن الأفطس ببَطَلْيَوس ، وكان رجلاً شجاعاً عظيم القدر كبير البيت ، كان أبوه المظفر بالله أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبي من فحول العلماء ، وكان ملكاً له تصانيف أعظمهـا وأشهرها الكتاب المنسوب إليه وهو « المظفري » في التاريخ ، وكانت مدينته بَطَلْيوس من أجـل البلاد ، ولم يذعن ولا أقبل على غير المدافعة والقتـال إلى أن خامر عليه أصحابه ، فقبض عليه باليد ، وعلى ولدين له ، فقتلوا صبراً ، وحمـل أولاده الأصاغر إلى مراكش . وسائر مـلوك الجزيرة سلموا ، وتحـولوا إلى بر العدوة ، إلا ما كان من المعتمد بن عبـاد ، فان سير بن أبي بكر لمـا فرغ من مـلوك الجزيرة ، كتب إلى يوسف بن تاشفين انه لم يبـق بالجزيرة من ملوكها غير المعتمد بن عباد ، فارسم في أمره بما تراه ، فأمره بقصده ، وأن يعرض عليه التحول إلى بر العدوة بأهله وماله ، فان فعل فبها ونعمت ، وإن أبى فنازله ، فلما عرض عليه سير بن أبي بكر ذلك لم يعطه جواباً ،فنازله وحاصره أشهراً ، ثم دخل عليه البلد قهراً ، واستخرجه من قصره قسراً ، فحمل إلى العدوة مقيداً ، فأنزل بأغمات ، وأقام بها إلى أن مات ، ولم يعتقل

من ملوك الأندلس غيره ، وتسلم سير بن أبي بكر الجزيرة كلهـا ، واستحوذ عليها ، فمات يوسف بن تاشفين في التاريخ الآتي ذكره إن شـاء الله تعالى ، وأفضى الملك إلى ولده أبي الحسن علي بن يوسف ، وكان رجلاً حليماً ، وقوراً صالحاً ، عادلاً منقاداً الى الحق والعلماء ، تجبى إليه الأموال من البـلاد ، ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه . .

ثم ولي بعده ولده تاشفين بن علي بن يوسف وعلى يـده انقرض ملكهم .

... وقد تقدم في أوائل هذه الترجمة أن يوسف بن تاشفين هو الذي اختط مدينة مراكش .

قال صاحب هذا الكتاب الذي نقلت منه هذه الترجمة في آخر الكتاب : إن مراكش مدينة عظيمة بناها الأمير يوسف بن تاشفين بموضـع كان اسمه مراكش (معناه : امش مسرعاً بلغة المصامدة) كان ذلـك الموضع مأوى اللصوص وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع بها، وقال غير مؤلف هذا الكتاب : بنى ابنُ تاشفين مدينة مراكش في سنة خمس وستين وأربعمائة، قاله أبو الخطاب بن دحية في كتابه الذي سماه «النبراس»في خلافة القائم بأمر الله قال : وكانت مزرعة لأهل نفيس، فاشتراها منهم بماله الذي خرج به من الصحراء .

ونفيس — بفتح النون ، وتشديد الفاء ، وسكون الياء المثناة من تحتها — جبل مُطل على مراكش .

قلت : وهي بنواحي أغمات في المغرب الأقصى ، وذلك أنه لما توطنت نفسه على الملك ، وأطاعته قبائل البربر وذهب من يخالفه من لَمْتُونة سمت همته إلى بناء هذه المدينة ، وكان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر، وبها قوم من البربر فاختطها يوسف ، وبنى بها القصور والمساكن الأنيقـة ، وهي في مرج فسيح ، وحولها جبال على فراسخ منها ، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها .

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة نزل يوسف على مدينة فاس ، وكانت إذ ذاك من قواعد بلاد المغرب العظام ، وضيق على أهلها ثم أخذها ، فأقر العامة بها ، ونفى البربر والجند بعد أن حبس بعضهم وقتل بعضهم فعند ذلك قوي شأنه ، وتمكن بالمغرب الأقصى والأدنى سلطانه ، مع ما صار بيده من بلاد جزيرة الأندلس كما شرحناه ، وكان حازماً ، سائساً للأمور ضابطاً لمصالح مملكته ، مؤثراً لأهل العلم والدين ، كثير المشورة لهم ، وبلغني أن الامام حجة الاسلام أبا حامد الغزالي تغمده الله تعالى برحمته لما سمع ما هو عليه من الاوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم ، عزم على التوجه إليه ، فوصل إلى الاسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه ، فوصله خبر وفاته ، فرجع عن ذلك العزم ، وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب ، وقد ذهب عني في هذا الوقت من أين وجدته .

وكان يوسف معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، دقيق الصوت ، وكان يخطب لبني العباس ، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين .

ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه ، الى ان توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة ، وعاش تسعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة ، رحمه الله تعالى .

وذكر شيخنا عزالدين بن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله : سنة خمسمائة. فيها توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس ، وكان حسن السيرة ، خيّراً ، عادلاً ، يميل الى اهل العلم والدين ، يكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن رأيهم ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام ، فمن ذلك ان ثلاثة نفر اجتمعوا ، فتمنى احدهم الف دينار يتجر بها ، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين ، وتمنى الآخر زوجته ، وكانت من احسن النساء ، ولها الحكم في بلاده ؛ فبلغه الخبر ، فأحضرهم وأعطى متمني المال

الف دينار ، واستعمل الآخر ، وقال للذي تمنى زوجته : يا جاهل ، ما حملك على هذا الذي لا تصل اليه ؟ ثم أرسله الى زوجته ، فتركته في خيمة ثلاثة ايام تحمل اليه في كل يوم طعاماً واحداً ؛ ثم احضرته وقالت له : ما أكلت في هذه الأيام ؟ قال : طعاماً واحداً ، فقالت له : كل النساء شيء واحد ؛ وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته .

وأما ولده علي المذكور فانه توفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، ومولده في حادي عشر رجب سنة ست وتسعين واربعمائة

ولما خرج عبد المؤمن بن علي المقدم ذكره قاصداً جهة البلاد المغربية ليأخذها من علي بن يوسف بن تاشفين المذكور ، وكان مسيره على طريق الجبال ، فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ، ليكون في قبالة عبدالمؤمن ، ومعه جيش فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة ، فتوفي علي بن يوسف في اثنائها في التاريخ المذكور ، فقدم أصحابه ولده إسحق بن علي ، وجعلوه نائب أخيه تاشفين على مراكش ، وكان صبياً ، وظهر أمر عبد المؤمن ودانت له الجبال ، وفيها غمارة ، وتالدة ، والمصامدة ، وهم أمم لا تحصى ، فخاف تاشفين بن علي واستشعر القهر ، وتيقن أن دولتهم ستزول ، فأتى مدينة وَهْران وهي على البحر ، وقصد أن يجعلها مقره ، فان غلب على الأمر ركب منها في البحر ، وصار إلى بر الأندلس يقيم بها ، كما أقامت بنو أمية بالأندلس عند انقراض دولتهم بالشام وبقية البلاد ، وفي ظاهر وَهْران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب ، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون ، وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه ، وكان عبد المؤمن بجمعه في تاجرة وهي وطنه ... واتفق أنه أرسل منسراً إلى وهران ، فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان ، ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن

يحيى صاحب المهدي ، فكمنوا عشية، وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط ، فقصدوه ، وأحاطوا به ، وأحرقوا بابه ، فأيقن الذين فيه بالهلاك ، فخرج تاشفين راكباً فرسه ، وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو ، فترامى الفرس نازيا لروعته ، ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في وَعْرٍ فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت ، وقتل الخواص الذين كانوا معه ، وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في الليل ، وجاء الخبر بذلك الى عبد المؤمن ، فوصل إلى وهران ، وسمي ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح ، ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل ، ثم توجه الى تلمسان ، وهي مدينتان قديمة ومحدثة بينهما شوط فرس ، ثم توجه إلى فاس ، فحاصرها ، وأخذها في سنة أربعين وخمسمائة ، ثم قصد مراكش في سنة إحدى وأربعين فحاصرها أحد عشر شهراً وفيها إسحاق بن علي ، وجماعة من مشايخ دولتهم ، فقدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف بن تاشفين نائبا عن أخيه تاشفين ، فأخذها وقد بلغ القحط من أهلها الجهد ، وأخرج إليه إسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج ، وكان من الشجعان وخواص دولتهم وكانا مكتوفين، وإسحاق دون البلوغ ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه ، فلم يوافقه خواصه، وكان لا يخالفهم فخلى بينهم وبينهما ، فقتلوهما ثم نزل عبد المؤمن في القصر ، وذلك في سنة اثنتين واربعين وخمسمائة ، وانقرضت دولة بني تاشفين .

قلت : وقد ذكرت في ترجمة المعتمد بن عباد أن يوسف بن تاشفين عاد الى الاندلس في العام الثاني من وقعة الزلاّقة ، وذكرت ههنا ما يدل على أنه ما عاد إليها ، وإنما نوّا به هم الذين أخذوا بلاد الاندلس له ، فقد يعتقد الواقف على هذا الكتاب أن هذا متناقض ، والعذر في هذا أنني وجدته في ترجمة ابن عباد على تلك الصورة ، ووجدته في هذه الترجمة على هذه الصورة ، والله أعلم بالصواب .

ثم رأيت في كتاب « تذكير العاقل » تأليف أبي الحجاج يوسف البياسي

أن ابن تاشفين لما جاز البحر قصد اشبيلية ، فخرج ابن عباد الى لقائه ، ومعه الضيافة والإقامة ، ثم خرج من اشبيلية بقضه وقضيضه قاصداً بَطَلْيَوْسَ ، وجرت الوقعة المذكورة ، ثم عاد ابن تاشفين الى بلاده ، وإن ابن عباد جاز البحر ومضى اليه في سنة إحدى وثمانين ، واستنجده على ما يجاوره من بلاد العدو ، فأكرمه يوسف بن تاشفين، وأجابه الى إنجاده ، ثم عاد ابن عباد الى بلاده ، واستعد للعدو ، ولحقه ابن تاشفين في رجب من سنة إحدى وثمانين، ثم خرج الأذفونش في جيش كثيف ، وكان ملوك الأندلس قد اجتمعوا عند ابن تاشفين فلما رأى ما فعلته من الاستعداد بالجمع الكثير رحل عن مكانه، وأوهمه خواصه أن ملوك الاندلس يفرون عنه، ويخلون بينه وبين الاذفونش ، فأصغى الى كلامهم وعمل في نفسه قولهم، فأخذ في الحركة الى البرية ، وتحرك الجميع بحركته، وجاز البحر عائداً الى بلاده، وقد وغر صدره على ملوك الاندلس، وتبين لهم تغيره عليهم فخافوه ، فشرعوا في تحصين بلادهم وتحصيل الأقوات، وأرسل بعضهم الى الاذفونش ليكون عوناً له ، خوفاً من ابن تاشفين، فأجابه الأذفونش بالإعانة والمساعدة، وكان قد سير له هدايا وألطافاً كثيرة ، فقبلها منه ، وحلف له على جميع ما التمسه منه ، واتصل ذلك بابن تاشفين ، فاستشاط غيظاً ، ثم إن ابن تاشفين جاز البحر مرة ثالثة، وقصد قرطبة وهي لابن عباد، فوصلها في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ، وقد سبقه إليها ابن عباد ، فخرج إليه بالضيافة ، وجرى معه على عادته ، ثم إن ابن تاشفين أخذ غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس ، وحبسه ، فطمع ابن عباد في غَرْناطة ، وأن ابن تاشفين يعطيه إياها ، فعرض له بذلك ، فأعرض عنه ابن تاشفين وخاف ابن عباد منه ، وعمل على الخروج عنه ، فقال له : إنه جاءته كتب من إشبيلية ، وهم خائفون من العدو المجاور لهم ، واستأذنه في العود إليها ، فأذن له فعاد ، ثم رجع ابن تاشفين الى بلاده وجاز البحر في شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ، وأقام ببلاده إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين ، ثم عزم على العبور إلى الأندلس لمنازلة ابن عباد ، وبلغ ذلك ابن عباد فأخذ في التأهب والاستعداد،

ووصل ابن تاشفين إلى سبتة ، وجمع العساكر الكثيرة ، وقدّم عليهم سير بن أبي بكر فجازوا البحر وضايقوا ابن عباد ، فاستصرخ بالأذفونش ، فلم يلتفت إليه ، وكان ما ذكرته ، والله أعلم .

وفي هذه الترجمة ذكر الملثمين فيحتاج الى الكلام عليه ، والذي وجدته أن أصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاء ، يسكنون الصحارى الجنوبية ، وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب ، وبيوتهم من الشعر والوبر ، وأول مَنْ جمعهم وحرضهم على القتال وأطمعهم في تلك البلاد عبدالله ابن ياسين الفقيه ، وقتل في حرب جرت مع برغواطة ، وقام مقامه أبوبكر ابن عمر الصنهاجي الصحراوي المقدم ذكره ، ومات في حرب السودان ، وقد ذكرنا حديث يوسف بن تاشفين وسبب تقدمه ، وهو الذي سمى أصحابه المرابطين ، وهم قوم يتلثمون ، ولا يكشفون وجوههم ، ولذلك سموهم الملثمين وذلك سنة لهم يتوارثونها ، خلفاً عن سلف ، وسبب ذلك على ماقيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم ، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم ، وقيل : كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا عن بيوتهم ، فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشايخهم ان يبعثوا النساء في زي الرجال الى ناحية ويقعدوا هم في البيوت ملثمين في زي النساء ، فاذا اتاهم العدو وظنوهم النساء فيخرجون عليهم ، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ، فلزموا اللثام تبركاً به بما حصل لهم من الظفر بالعدو .

وقال شيخنا الحافظ عزالدين بن الاثير في تاريخه الكبير ما مثاله : وقيل إن سبب تلثمهم ان طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم ، ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ، ويتلثمن ، ويضيقنه حتى لا يعرفن ، ويلبسن السلاح ، ففعلن ذلك ، وقد تقدم المشايخ

والصبيان أمامهن ، واستدار النساء بالبيوت ، فلما اشرف العدو رأى جمعاً عظيماً ، فظنه رجالاً ، وقالوا : هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت. والرأي أن نسوق النعم ونمضي ، فان اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم ، فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل الرجال إلى الحي ، فبقي العدو بينهم وبين النساء ، فقتلوا من العدو خلقاً كثيراً ، وكان مَنْ قَتَلَ النساء أكثر ، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ، ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً .

ومما قيل في اللثام :

قوم لهم درك العلا من حمير   وإن انتموا صنهاجة فهم همُ
لما حووا أحراز كل فضيلة   غلب الحياء عليهمُ فتلثموا

وكان يوسف بن تاشفين مقدم جيش أبي بكر بن عمر الصنهاجي ، وخرج من سجلماسة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وكان أبو بكر بن عمر قد أتى سجلماسة في سنة ثلاث وخمسين وحاصرها ، وقاتل أهلها أشد قتال ، وأخذها ، ثم وثب عليها يوسف بن تاشفين فكان ما كان ، والله أعلم .

الملحق «٢»

الزَّلاَّقَة[1]

بَطْحَاءُ الزَّلاَّقة من إقليم بَطَلْيَوْس من غرب الأندلس ، فيها كانت الوقيعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية عظيم الجَلاَلِقة إذْفُونْش بن فَرْذِلَنْد عهيد المعتمد محمّد بن عبّاد ، وكان ذلك في الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ .

وكان السببُ في ذلك فساد الصلح المنعقد بين الطاغية وبين المعتمد ؛ فإنّ المعتمد اشتغل عن أداءِ الضريبة في الوقت الذي صارَتْ عادتُه يؤدّيها فيه ، بغزو ابن صُمادِح صاحب المريّة ، واستنقاذه ما في يدَيْه بسبب ذلك ، فتأخّر لأجل ذلك أداء الإتاوة عن وقتها ، فاستشاط الطاغية غضباً ، وتشطّط فطلب بعض الحصون زيادةً على الضريبة ، وأمعن في التجنّي ، فسأل في دخول امرأته القُمْطِيجة إلى جامع قرطبة لتَلِدَ فيه من حملٍ كان بها ، حيث أشار إليه بذلك القِسّيسُون والأساقفة ، لمكانِ كنيسةٍ كانَتْ في الجانب الغربيّ منه ، مُعَظَّمَةٍ عندهم ، عمِلَ المسلمون عليها الجامعَ الأعظم ؛ وسأل أن تنزل امرأتُه المذكورة بمدينة الزَّهْرَاءِ غربيّ مدينة قرطبة ، تنزل بها فتختلف منها إلى الجامع المذكور ، حتى تكون تلك الولادة بين طيب نسيم الزهراءِ ، وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع ، وزعم أنّ الأطبّاء أشاروا عليه بالولادة في الزهراءِ ، كما أشار عليه القِسّيسون بالجامع ، وسفر

(١) من الروض المعطار : ٨٣ .

بذلك بَيْنهما يهوديٌّ ، وكان وزيراً لابن فَرْذِلَنْد ، فتكلّم بين يدَيْ المعتمد ببعض ما جاء به من عند صاحبه ، فأيأسه ابنُ عبّاد من جميع ذلك ، فأغلظ له اليهوديُّ في القول ، وشافهه بما لم يحتمله ، فأخذ ابنُ عبّاد مِحْبَرةً كانَتْ بيْنَ يدَيْه ، فأنزلها على رأس اليهوديّ ، فألقى دماغه في حلقه ، وأمر به فصُلِب منكوساً بقرطبة .

واستفتى ابنُ عبّاد الفُقَهاءَ لما سكت عنه الغضبُ ، عن حكم ما فعله باليهوديّ ، فبادرَه الفقيهُ محمّد بن الطلاّع بالرخصة في ذلك ، لتعدّي الرسول حدود الرسالةِ إلى ما يستوجب له القتلَ ، إذ ليس له أن يفعل ما فعل ؛ وقال للفقهاء حين خرجوا : إنّما بادَرْتُ بالفتوى خوفاً أن يكسلَ الرجلُ عمّا عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً !.

وبلغ الفُنْش ما صنع ابن عبّاد ، فأقسم بآلهتهِ ليغزونّه بإشبيلية ، ويحصره في قصره ؛ فجرّد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ، ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمرّ على لَبلة الى اشبيلية ، وجعل موعده إيّاه طَرْيانَة للاجتماع معه ؛ ثم زحف ابن فرذلند بنفسه في جيش آخر عرمرم ، فسلك طريقاً غير طريق صاحبه ؛ وكلاهما عاث في بلاد المسلمين وخرّب ودمّر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفّة النهر الأعظم ، قبالة قصر ابن عبّاد ؛ وفي أيام مُقامِه هناك كتب الى ابن عبّاد زارياً عليه : « كثُرَ بطول مقامي في مجلسي الذبانُ ، واشتدّ عليّ الحرّ ، فأتحفني من قصرك بمروحةٍ أروّحُ بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عني ! » فوقّع له ابن عبّاد بخط يده في ظهر الرقعة : « قرأتُ كتابك ، وفهمتُ خيلاءك وإعجابك ، وسأنظرُ لك في مراوحَ من الجلود اللَّمطيّة ، في أيدي الجيوش المُرابِطيّة ، تروّح منك ، لا تروّح عليك ، إن شاء الله ! » فلما تُرجم لابن فَرْذِلَنْد توقيعُ ابن عبّاد في الجواب ، أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

وفشا في بلاد الأندلس خبرُ توقيع ابن عبّاد ، وما أظهر من العزيمة على إجازة الصَّحراويين والاستظهار بهم على ابن فَرْذِلَنْد ، فاستبشر الناس ، وفُتِحت لهم أبواب الآمال ، وانفرد ابن عبّاد بتدبير ما عزم عليه من مداخلة يوسف بن تاشفين ، ورأت ملوك الطوائف بالأندلس ما عزم عليه من ذلك ، فمنهم من كتب إليه ومنهم من شافَهَه : كلُّهم يُحذِّرُه سوء عاقبة ذلك ، وقالوا له : المُلكُ عقيمٌ ، والسيفان لا يجتمعان في غِمدٍ واحد ! فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً : رَعيُ الجمال خيرٌ من رعي الخنازير ! أي أنّ كونه مأكولاً لابن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء ، خيرٌ من كونه ممزقاً لابن فرذلند ، أسيراً يرعى خنازيره في قشتالة؛ وكان مشهوراً برزانة الاعتقاد. وقال لعذّاله ولوّامه : يا قوم أنا من امري على حالتَيْن ، حالة يقين وحالة شكٍّ ، ولا بدَّ لي من إحداهما ؛ أمّا حالة الشكّ فإني إن استندتُ إلى ابن تاشفين أو إلى ابن فَرْذِلَنْد ففي الممكن أن يَفِيَا لي ويُبْقِيَا عليَّ ، ويمكن ألاّ يفعلا ؛ فهذه حالة الشكّ . وأمّا حالة اليقين ، فهي أنّي إن استندتُ إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله ، وإن استندتُ إلى ابن فَرْذِلَنْد أسخطتُ الله ، فإذا كانتْ حالة الشكّ فيها عارضةً فلأيِّ شيءٍ أدع ما يُرضي الله وآتي ما يسخطه ! وحينئذ أقْصَرَ أصحابُه عن لومه .

فلما عزم خاطب جارَيْه المتوكّل عمر بن محمّد صاحب بَطَلْيَوْس ، وعبدالله بن حَبُّوس ابن ماكْسَن الصِّنْهَاجيّ صاحبَ إغرَناطة ، يأمرُهُما أنْ يبعثَ إليه كلٌّ واحدٍ منهما قاضي حضرته ، ففعلا ؛ ثمّ استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عُبَيْد الله بن أدهَم ، وكان أعقل أهل زمانه ؛ فلما اجتمع القُضاةُ عنده بإشبيلية، أضاف إليهم وزيره أبا بكر ابن زَيْدُون، وعرّفهم أربعتَهم أنهم رُسُلُه إلى يوسف بن تاشفين ، وأسْنَدَ إلى القضاة ما يليق بهم من وعظِ يوسف ، وترغيبه في الجهاد ؛ وأسند إلى ابن زيدون ما لا بدَّ منه في تلك السفارة ، من إبرام العقود السلطانيّة . وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تَفِد عليه وفودُ ثغور الأندلس ، مستعطفين ، مجهشين بالبكاء،

ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفُقَهاءِ حضرته ، ووزراء دولته ، فيستمع إليهم ، ويصغي لقولهم ، وترقُّ نفسُه لهم ؛ فما عبرتْ رُسُلُ ابن عبّاد البحرَ إلاّ ورُسُل يوسف بالمرصاد ؛ وقد آذن صاحب سَبْتة بقصده الغزو، وتشوُّفه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس ، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز ؛ فتعذّر عليه ، فشكاه يوسف إلى الفقهاءِ ، فأفْتَوْا أجمعين بما لا يَسُرُّ صاحب سَبْتة .

ولما انتهت الرُّسُلُ إلى ابن تاشفين أقبل عليهم ، وأكرم مثواهم ، وجدّدوا الفتوى في حقّ صاحب سَبْتة ، واتصل ذلك بابن عبّاد، فوجّه من إشبيلية أسطولاً نحو صاحب سبتة ، فانتظمَتْ في سلك يوسف ، ثمّ جرَتْ بينه وبين الرُّسُل مراوضات ، ثمّ انصرفت إلى مُرْسِلِها .

ثمّ عبر يوسفُ البحر عبوراً هنيئاً ، حتى أتى الجزيرةَ الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وجعلوا سِماطاً أقاموا فيه سوقاً ، جلبوا عليه من عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة في دخول البلد ، والتصرُّف فيها ، فامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوّعين وتواصَوْا بهم خيراً .

فلما عبر يوسف وجميع الجيوش، انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل ؛ وبعث المعتمدُ ابنه إلى لقاء يوسف ، وأمر عُمّار البلاد بجلب الأقوات والضيافات، ورأى يوسف من ذلك ما سرّه ونَشّطه ، وتَوارَدَت الجيوشُ مع أمرائها في إشبيلية ، وخرج المعتمدُ إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه ، فأتى محلةَ يوسف فركض نَحْوَ القوم وركضوا نَحْوَهُ ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتَقَيا منفردَيْن ، وتصافَحَا وتعانَقَا ، وأظهر كلُّ واحدٍ منهما المودّة والخلوص ، فشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا نفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتَضرّعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك

خالصاً لوجهه ، مقرِّباً إليه وافترقا ؛ فعاد يوسفُ لمحلّته ، ورجع ابن عبّاد إلى جهته ، ولحق بابن عبّاد ما كان أعدّه من هَدَايا وتُحَفٍ وأَلْطافٍ ، أوسع بها محلّة ابن تاشفين . وباتوا تلك الليلة . فلمّا صلّوا الصبح ركب الجميعُ ؛ وأشار ابن عبّاد على يوسف بالتقدُّم إلى إشبيلية ، ففعل ؛ ورأى الناس مِن عِزّة سلطانه ما سَرّهم ؛ ولم يبْقَ من ملوك الطوائف بالأندلس إلاّ من بادرَ وأعان وخرج وأخرج ؛ وكذلك فعل الصَّحْراويُّون مع يوسف بكل صقعٍ من أصقاعه ، رابطوا وصابروا .

ولما تحقق ابن فَرْذِلَنْد جوازَ يوسف ، استنفر جميعَ أهل بلاده وما يليها ، وما وراءها ، ورفع القِسّيسون والرُّهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلَهم ، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يحصى عدده ؛ وجعل يصغي على أنباء المسلمين متغيظاً على ابن عبّاد جافياً ذلك عليه ، متوعداً له. وجواسيسُ كلّ فريق مترددون بين الجميع ، وبعث ابن فرذلند إلى ابن عبّاد : إنّ صاحبكم يوسفَ قد تعنّى من بلاده ، وخاضَ البحورَ ، وأنا أكفيه العناءَ فيما بقي ، ولا أُكلفكم تعباً ، أمضي إليكم ، وألقاكم في بلادكم ، رفقاً بكم ، وتوفيراً عليكم . وقال لأهل ودّه ووزرائه : إني رأيتُ إن أمكنتُهم من الدخول إلى بلادي ، فناجزُوني بين جدرها ، وربما كانت الدائرة عَليّ ، فيكتسحون البلادَ ، ويحصدون مَنْ فيها في غداةٍ ؛ لكن أجعلُ يومهم معي في حوز بلادهم ، فإنْ كانت عليّ اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدُّرُوب وراءَهم إلاّ بعد أهبةٍ أخرى ، فيكون في ذلك صونٌ لبلادي ، وجبرٌ لمكاسري ! وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خِفتُ أنا أن يكون منهم فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها !

ثم برز بالمختار من أنجاد جموعه على باب دَربه ، وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء أُقاتلُ الجنّ والإنسَ وملائكةَ السماء ، فالمُقلّلُ يقول : كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين

ألف دارع ، ولا بُدّ لِمَنْ هذه صِفَتُهُ أنْ يتبعه واحد أو اثنان ، وأما النصارى فيتعجّبون مِمّنْ يزعم ذلك ويقوله . واتفق الكلُّ أنّ عدّة المسلمين كانت أقلُّ من عدّة المشركين ورأى ابن فَرْذِلَنْد في نومه كأنه راكبٌ على فِيل ، فضرب نقيرة طبل فهالته رؤياه ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحدٌ ودسّ يهودياً الى من يعلم تأويلها من المسلمين ، فدُلّ على عابر فقصَّها عليه ، ونسبها إلى نفسه ، فقال له العابر : كذبت ! ما هذه الرؤيا لك ، ولا بد أن تخبرني مَن صاحبها وإلا لم أعبرها لك ! فقال له : اكتمْ ، ذلك هو الفُنْش بن فَرْذِلَند ! فقال العابر : قد علمت أنها رؤياه ولا ينبغي أن تكون لغيره ، وهي تدلُّ على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة ، تؤذن بصلبه عما قريب ؛ أما الفيل فقد قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ » (١) السورة ، وأما ضرب النقيرة فقد قال الله تعالى : « فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ » (٢) الآية ؛ فانصرف اليهودي الى ابن فرذلند وجَمجَمَ له وذكر له ما وافق خاطره ولم يفسرها له .

ثم خرج ابن فرذلند ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه الى الجهة الغربية من بلاد الاندلس ، فتقدم يوسف فقصده ، وتأخر ابن عباد لبعض الأمر ، ثم انزعج يقفو اثره بجيش فيه حُماةُ الثغور ، ورؤساء الأندلس ، وجعل ابنه عبدالله على مُقدمته ، وسار وهو يتفاءل لنفسه ، مكمّلاً البيت المشهور :

لا بدّ من فرج قريب	يأتيك بالعجب العجيب
غزوٌ عليك مبارك	سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنه	نكسٌ على دين الصليب
لا بدّ من يوم يكو	ن أخاً له يوم القليب

(١) قرآن كريم : ١٠٥ - ١ .
(٢) قرآن كريم : ٧٤ - ٨ ـ ٩ .

وافت الجيوشُ كلها بَطليوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج اليهم صاحبها المتوكل عُمر بن محمد فلقيهم بما يجبُ من الأقوات والضيافات ، وبذل مجهودَهُ، ثم جاءَهم الخبر بشخوص ابن فرذلند إليهم ، ولما ازدلف بعضهم إلى بعض ، أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد ابن فرذلند، إذ هُم غُرباءُ لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيلَ إنّ الرجل من الصحراويين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه ، أو لقضاء حاجته ، فيجد ابن عبّاد بنفسه مُطيفاً بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيل على أفواه طُرق محلاتهم ؛ فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يخطىء إذ ذاك من لقاء ابن عبّاد لكثرة تطوافه عليهم .

ثم كتب يوسف إلى ابن فرذلند يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو يأذن بحربه فامتلأ غيظاً وعتا وطغا وراجعه بما يدل على شقائه ، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبَهم ، ونشروا أناجيلهم ، وخرجوا يتبايعون على الموت؛ ووعظ يوسف وابن عباد أصحابها ، وقام الفقهاء والعُبّاد يعظون الناس ويحضّونهم على الصبر ، ويحذرونهم الفرار ؛ وجاءهم الطلائع بخبر أن العدوّ مشرفٌ عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون قد أخذوا مَصافّهم ، فكعّ ابن فرذلند ورجع الى إعمال الخديعة، ورجع الناس الى محلاتهم ؛ وباتوا ليلتهم ، ؛ ثم أصبح يوم الخميس فأخذ ابن فرذلند في إعمال الحيلة ، فبعث لابن عبّاد يقول . غداً يوم الجمعة وهو عيدكم ، وبعده الأحد وهو عيدنا فليكنْ لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت ! فعرّف المعتمدُ بذلك يوسفَ ، فقال : نعم ! فقال له المعتمد : هذه خديعة ابن فرذلند ! إنما يريد غدرَ المسلمن ! فلا تطمئن اليه ، وليكن الناس على استعداد له طولَ يوم الجمعة كل النهار ! وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلاّت ، خائفين من كيد العدوّ ، وبعد مضيّ جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي (وكان في محلة ابن عباد) فرحاً مسروراً ، يقول إنه رأى النبي (صلعم) فبشره بالفتح والشهادة له في

صبيحة غد وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك إلى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف فخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر ابن فرذلند ، فحذروا أجمعين ، ولم ينفع ابن فرذلند ما حاوله من الغدر .

ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد ، يخبران أنهما أشرفا على محلة ابن فرذلند وسمعا ضوضاء الجيوش ، واضطراب الاسلحة . ثم تلاحق بقية الطلائع محققين بتحرك ابن فرذلند ، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلة ابن فرذلند يقولون : استرقنا السمع الساعة فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه : ابن عباد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون ، وان كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد ، فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وانما قادهم ابن عباد فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا ، فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة ! وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر بن القصيرة الى يوسف يعرفه باقبال ابن فرذلند ، ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين ، فعرفه بجلية الأمر ، فقال له : قل له اني سأقرب منك إن شاء الله تعالى . وأمر يوسف بعض قواده ان يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ، ما دام ابن فرذلند مشتغلاً مع ابن عباد.

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد ، فلم يصله الا وقد غشيته جنود ابن فرذلند فصدمها ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ولم ينكشف له ، فحميت الحرب بينهما ، ومال ابن فرذلند على المعتمد بجموعه ، وأحاطوا به من كل جهة واستحر القتل فيهم ، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضّته الحرب ، واشتد البلاء ، وأبطأ عليه الصحراويون ، وساءت ظنون أصحابه ، وانكشف بعضهم ، وفيهم ابنه عبدالله ، وأثخن ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته ، حتى وصلت إلى صدغيه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قدّم له آخر ،

وهو يقاسي حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكر في تلك الحـالة ابناً له صغيراً ، كان مغرماً به ، تركه بأشبيلية عليلا ، إسمه العلاء ، وكنيته أبو هاشم ، فقال [متقارب] :

أبا هـاشم هشمتني الشفار   ولله صـبري لذاك الاوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج   فـلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد ، من قواد ابن تاشفين ، داود بن عائشة ، وكان بطلا شهماً ، فنفس بمجيئه عن ابن عباد ؛ ثمّ أقبل يوسف بعد ذلك ، وطبوله تصدع الجو ، فلما أبصره ابن فرذلند وجه أشكولته اليه ، وقصده بمعظم جنوده ، وقد كان علم حساب ذلك من أول النهار ، وأعد له هـذه الاشكولة ، وهي معظم جنوده ، فبـادر اليه يوسف بجمعه فردهم إلى مركزهم ، وانتظم به شمل ابن عباد ، ووجد ريح الظفر ، وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعاً الحملة، فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدمـاء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ؛ ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة نزل معها النصر،وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين ، فصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومرّ هارباً منهزماً ، وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي أثرها بقية عمره ، فكان يخمع منها ، فلجأ إلى تلٍّ كان يلي محلته في نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم ، وأبادَ القتـلُ والأسرُ من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليهـا وابن فرذلند ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة ، فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وبأصحابه .

وأقبل ابن عباد على يوسف فصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه وشكر يوسف مقامه ، وحسن بلائه وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال : هم هـؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك ! ولما انحاز الطاغية بشرذمته، جعل ابن عباد يحرّض على اتباع الطاغية ،وقطع

دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : لو اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين ، فيهلكهم ؛ بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ، ويجتمعوا بنا ، ثمّ نرجـع إليه فنحسم داءه . وابن عباد يرغب في استعجال إهلاكه ويقول إن فرّ أمامنا لقيه أصحابنـا المنهزمون فلا يعجزون عنه ! ويوسف مصرٌ على الامتناع من ذلك . ولمـا جاء الليل تسلل ابن فرذلند وهو لا يلوي على شيء ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهـم ، فلم يدخـل طليطلة إلا في دون المائة .

وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين، فقال شيع ابن عبـاد : لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الصواب والرأي في معاجلتـه ، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع الاستغنـاء عنه ! وقالت شيع يوسف : إنما أراد ابن عباد قطع حبـال يوسف من العود إلى جزيرة الاندلس ! وقال آخرون : كلا الرجلين أسرّ حسواً في ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب .

وكتب ابن عباد الى ابنه باشبيلية : كتابي هذا من المحلة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب وقـد أعزّ الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ؛ وأذاق المشركين العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ؛ فالحمد لله على ما يسّره وسناه من هـذه الهزيمة العظيمة ، والمسرّة الكبيرة ، هزيمة إذفونش أصلاه الله نكال الجحـيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم . بعد إتيان النهب على محلاّته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله وأجناده ، وحُماته وقوّاده. حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامعَ يؤذّنون عليها ، فلله الحمدُ على جميل صنعه، ولم يصبْني بحمد الله تعالى إلا جراحات يسيرة أَلَمَّتْ ، لكنها فرّحَتْ بعد ذلك ، وغنمتُ وظفرتُ .

ولما فرغ يوسف من وقيعة يوم الجمعة، تواردت عليه أنباء من قِبَل السفر،

فلم يجد معها بداً من سرعة الكرّة ، فانصرف الى إشبيلية ، فأراح بظاهرها ثلاثة أيام ، ونهض نحو بلاده ، ومشى ابن عبّاد معه يوماً وليلةً . فعزم عليه يوسف في الرجوع ، وكانت جراحاته تَثْعَبُ وتورّمَ كَلْمُ رأسه ، فرجع وأمر ابنه بالمسير بين يدَيه الى فرضة المجاز حتى يعبر البحر الى بلده .

ولما دخل ابن عبّاد إشبيلية جلس للنـــاس وهُنّىءَ بالفتح ، وقرأت القرّاء ، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه . قال عبد الجليل بن وهبون : حضرتُ ذلك اليوم ، وأعددتُ قصيدةً أنشِدُهُ إياها ، فقرأ القــارىء : « إلاّ تنصُروهُ فقــد نصره الله » (١) فقلتُ : بُعْداً لي ولشعري ! والله ما أبقت لي هذه الآية معنىً أحضره اليه ، وأقوم به .

واستشهد في ذلك اليوم جمــاعةٌ من أعيان الناس ، كابن رُميلة المتقدم الذكر ، وقاضي مراكُش أبي مروان عبد الملك المصموديّ وغيرهما . وطار ذِكرُ ابن عباد بهذه الوقيعة ، وشهد بجده ، ومالت اليه القلوب ، وسالمتْه ملوكُ الطوائف ، وخاطبوه جميعاً بالتهنئة ، ولم يزل ملحوظاً معظّماً الى أن كان من أمره مع يوسف ما كان .

(١) قرآن كريم : ٩ – ٤٠ .

الملحق «٣»

الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين (١)

كان جوازه الثاني سنة ٤٨١ سببه : حدث الوزير أبو بكر بن عقاب قال لما كان بعد وقعة الزلاقة بسنين وفدت على أمير المسلمين يوسف بن تاشفــين بحضرة مراكش جملة من وجوه الأندلس من أهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة فشكوا له ما حل بأهل بلنسية من أهل الانبيطور وكان (وهو) من ملوك الروم قد لازم حصارها حتى دخلها وشكوا له ما حلّ بأهل مرسية وأعمال لورقة وبسطة من شأن لييط وهو حصن حصين على رأس جبل شاهــق بينه وبين لورقة نصف يوم يملكه العدو وكانت سراياه تسير شرقاً وغرباً إذ كان في موسطة بلاد المسلمين فلم يزل وجوه الاندلس من تلك البلاد يترددون اليه بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم إذا تمكن الفصل ثم ان ابن عباد تحرك من اشبيلية في خاصتـــه وعبر البحر إلى يوسف بن تاشفين فتلقاه بالدخلة على وادي سبو فتلقاه بوجه طلق وصدر رحب واكرام جم وقال له ما السبب الذي دعاك الى الجواز الينا وهلا كتبت بحاجتك فقال له : جئتك احتساباً وجهاداً وامتعاضاً للدين وقد أجرى الله الخير على يديك وحظك ممـــا جئت به الأوفر وقد اشتد ضرار النصارى المستولين على حصن لييط وعظم أذاه بالمسلمين لتوسطه في بلادهم ولا جهــاد أعظم منه أجراً ولا أثقل في

(١) الحلل الموشية: ٥٤ - ٦٢ .

الميزان وزراً ، فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول ووعده بالحركة والجواز ، فاستحثه واستوثق منه وصار الى حضرة اشبيلية وتقدم الى كل طبقة من أهل مملكته وأكثر من أعمال السهام والمطارد وعمل الرعادات وغير ذلك من الآلات ؛ ولما رتب أشغاله ومهد أحواله وكمل من ذلك ما حوى له ، اتصل به قدوم أمير المسلمين وجوازه البحر واستقراره بالجزيرة الخضراء ، فتلقاه ابن عباد على عادته بما يقدر عليه من الكرامات والمبرة ، وأنفذ أمير المسلمين كتبه لملوك الأندلس يستدعيهم للجهاد معه والموعد حصن لييط ، فاجتاز على مالقة واستنفر صاحبها المستنصر بالله تميم بن بلقين بن باديس وتلاحق به المظفر عبدالله بن بلقين صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح من المرية ، وتوافى رؤساء الاندلس من شقورة وبسطة وجيان ومن كل مكان، وجاءهم من مرسية النجارون والبناؤون والحدادون واضطربت المحلة محدقة بحصن لييط وكان بداخله من الروم الف فارس واثناعشر الف راجل ، واتصلت السابلة وكثر الوارد واتصلت الحروب على الحصن ليلاً ونهاراً وكل أمير من أمراء المسلمين يقاتل في يومه بخيله ورجله مداولة بينهم . وتمادى ذلك شهراً ، واجتمع المعتمد ابن عباد ويوسف بن تاشفين وظهر لهما من حصانته ومنعته واستصعابه ما آيسهم عنه وأنه لو كان دون سور لكان جفاء جرفه عاصماً لمن فيه وأنه لا يتأتى لهم أخذه إلا بالمطاولة وقطع مادة القوت عنهم . وكان جملة من وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق صاحب مرسية الثائر بها على المعتمد ابن عباد فشكا ابن عباد بابن رشيق لأمير المسلمين وذكر انتزاءه عليه ، وأنه دفع جبايتها مصانعة للطاغية أذفنش ، فحضر ابن رشيق واستفتى يوسف بن تاشفين في أمرهما الفقهاء فوجب الحكم على ابن رشيق فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه وإسلامه في يد ابن عباد ونهاه عن قتله فثقفه ابن عباد فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرابته وجميع محلته الى مرسية وانتزوا بها ومنعوا الميرة عن المحلة فاختلت امورها ووقع الغلاء بها وارتفع السعر فيها، فضاقت بالناس الاحوال ؛ وفي أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم فأخذ في الحشد ويمم الحصن في أمم لا تحصى ، فاقتضى رأي يوسف بن تاشفين التوسعة

على الحصن والتأهب للقائه ، فتأخر بمحلته الى ترياسة ، وهي موضع الماء والثمر ، وظهر له أن الاذفنش اذا وصل فغايته تخليص قومه واخلاء الحصن ويزول ضرره ، وأن الصواب اخلاء الطريق له ، ولما وصله للحين وجد قوماً جياعاً لا يقدرون على إمساك الحصن فأحرقه وخرج من فيه من قومه . فجرد يوسف من عسكره جيشاً ينيف على اربعة آلاف فارس بعثه الى بلنسية وأردف بعده عسكراً عظيماً قدم عليه محمد بن تاشفين الى جهة وانصرف من هنالك الى العدوة ، فتحرك الجميع بحركاته وعادوا بلادهم. وهذا هو تلخيص خبر جوازه الثاني الى الأندلس .

الجواز الثالث

كان جوازه الثالث في سنة ٤٨٣ سببه أنه لما كان على حصن لييط نقل إليه عن (ملوك الاندلس) كلام أحفظه وغيّر صدره عليهم وهو الذي أزعجه الى العدوة ولما تبين لهم تغيّره عليهم وإعراضه عنهم نظر كل واحد منهم لنفسه بغاية حزمه ، فأول من شهر ذلك وتظاهر به وجدّ فيه المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس واتصلت أنباؤه بيوسف بن تاشفين فاشتد غضبه وزاد حرجه عليه ولما احتل بالجزيرة الخضراء وافاه ابن عباد فتلقاه بعادته من التعظيم واحتفل في التضييف والتكريم وتوالت عليه الاخبار من الامير عبدالله ابن بلقين بما يغيظه ويحقده فاستنزل من مالقة أخاه المستنصر تميم بن بلقين وتوجه الى غرناطة فلقيه المظفر عبد الله بن بلقين خارج الحضرة وترجل اليه ودخل معه البلاد وسلم اليه الامر وقام ينظر في توطيد البلد وتمهيد الامور واحتمله هو وأخاه المستنصر تميما الى العدوة واسكنهما بأغمات. وقد استوفى الكلام في هذا الامير عبد الله بن بلقين في الكتاب الذي ألفه في دولة قومه. وكان المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس قد قدما عليه بغرناطة يهنئانه بما تهيأ له من ملك غرناطة ومالقة فلم يقبل عليهما وأعرض عنهما وانصرفا عنه الى

بلادهما وأدرك ابن عبـــاد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الاندلس ، وقـال لحليفه المتوكل ابن الافطس والله لا بد له أن يسقينا من الكاس الذي أسقى به عبد الله بن بلقين ولما عاد ابن عباد الى أشبيلية أخذ في بناء الاسوار وعمل القنطرة فقال له ابنه أبو الحسن عبد الله الرشيد :ألم اقـــل لك يا أبت يخرجنـا هذا الصحراوي من بلادنا ان انت اوردته علينا قال:يا بني لا يُنجي حذر من قدر. ولمـا كان في سنة ٤٨٤ تحرك يوسف بن تاشفين الى سبتة لجواز عساكره اللمتونية الى الاندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصار بلادهم وفي أثناء مقامه بها أمر ببناء المسجد الجامع بسبتة والزيادة فيه فزاد فيه حتى أشرف على البحر وبنى البـلاط الاعظم منه وأمر ببناء سور الميناء السفلي وشرع في جوازهم فقدم ابن عمه الامير سير بن أبي بكر على عسـكر وأمره بمحاصرة ابن عبـاد باشبيلية وأوعز اليه أنه إذا فرغ من شأنه فيتقدم لبلاد المتوكل بن الافطس وقدم أبا عبد الله بن الحاج على عسكر ثان وأمره بمنازلة الفتح الملقب بالمـأمون ولد المعتمد بن عباد بقرطبة وقدم أبا زكريا بن واسينو على عسكر ثالث وأمره بمحـــاصرة المعتصم محمد بن معن بن صمادح بالمرية وقدم جرور الحشمي على عسكر رابع وأمره بمنازلة يزيد الراضي ولد المعتمد بن عبـــاد برندة فجوّز العساكر وانصرف كل فريق الى حيث أمرهم وأقـام هو بسبتة مترقبـاً لأنبائهم ومتشوفاً لما يحدث عنهم فكان منهم بالاندلس ما هو مشهور من الاستيلاء على بلادهم والغلبة على مملكتهم ليس هذا موضع التقصي لاخباره لما قُصد من ايجاز القول واختصاره.ولم يبق بالاندلس ولاية إلا بنو هود لأن المستعين بالله أبا جعفر أحمد بن المؤتمن بالله أبي الحجاج يوسف بن المقتـدر بالله أبي جعفر بن المستعين بالله سليمان بن محمد بن هود الجذامي أقام ببلاده بشرق الاندلس وكان يومئذ بيده عمالة الثغر الاعلى وهي سرقسطة وتطيلة وقلعـــة أيوب ودروقة ووشقة وبربشتر ولاردة وأفراغة وبلغي ومدينة سالم ووادي الحجارة وما والى ذلك كله بحصن بلاده وملك رعيته فخاف أمره ولم تدخل عليها بسببه داخلة وكان مع ذلك يهادي أمير المسلمين ويكـاتبه وقال له في

مكاتبته : نحن بينكم وبين العدو سدّ لا يصل اليكم منه ضرر ومنّا عينٌ تطرف وقد قنعنا بمسالمتم فاقنعوا منا بها الى ما نعينكم به من نفيس الذخائر .ووجه اليه ابنه عماد الدولة أبا مروان عبد الملك فأجابه يوسف بن تاشفين الى ما أراد وممـــا جاوبه به ما نصه : من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين الى المستعين بالله أحمد بن هود أدام الله تأييده من حضرة مراكش حيث تتلى آية شرفك ، ومآثر سلفك ، ونحن نحمد الله بجميع المحامد ، ونستهديه أحسن الموارد ، ونسـأله أتم الفوائد ، وأنجح المقاصد ، ونصلّي على سيدنا ومولانا محمد ﷺ صفوة أوليائه ، وخاتم أنبيائه ، وأما الذي عندنا أيدك الله لجنابك الـكريم ، ومجدك الصميم ، ومحلك المعلوم ، فودّ صريح ، وعقد في ذات الله تعـالى صحيح ، ووردنا نشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل أبو مروان عبد الملك ابنك ولادة وتنسّباً وابننـــا وداداً وتقربا زاد الله به عينك قرة، ونفسك مسرة ، ومعه خاصتك الوزيران أبو الاصبغ وأبو عامر أكرمهما الله بتقواه وكلا وفيناه حق نصابه ، وأتينا بره من بابه ، وأديا الينا كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور فوقفنا منه على وجه شخوصهما ، وأصغينا في تفصيـل جملته الى تخليصهما ، فألقينا لهما مراجعة في ذلك ما لقنوه ، وسفرنا لهما عن وجه قصدنا فيه حتى استبانوه ، وجلته الوفاق ، وجمـاعة الانتظام في سلك مـا يرضي الله تعالى والاتساق ، إن شاء الله تعالى والسلام . فأقام ابن هود رخي البال يهدد النصارى بالمسلمين ويهدد المسلمين بالروم بكونه حائلا بينهـم وبين بلاد الافرنج والاردمانين وقد كان الافرنج قبل ذلك باعوام قريبة العهد خرجوا من الارض الكبيرة الى الاندلس في جموع كثيرة ليس لهـا حد ولا يحصى عدد الا الله انتشروا على ثغور سرقسطة وأثخنوا وقتلوا وسبوا وتغلبوا على مدينة بربشتر عنوة وقتلوا فيها نحو أربعين ألفاً ما بينْ فارس وراجـل وأسروا النساء والاولاد فاسترجعها من أيديهم المقتدر بالله ابن هود ودخـل عليهم عنوةولم ينج من أهلها إلا يسير؛ يذكر أنه تالف عنده في استفتاحها ستة آلاف من الرماة بالقسي العقارة قال البراكي : دخل منها سرقسطة نحو خمسة

آلاف من الخيل والدرع ما لا يحصى ، فشاع لابن هود بهذا الفتح الذي اتفق على يده صيت بعيد وكان يتحف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويهاديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر، اتصل اليه ذلك من إقبال الدولة أبي الحسن علي بن الموفق بالله أبي الحسن علي بن مجاهد العامري صاحب دانية وعاملها ظفر بها لما تغلب على دانية ، وذلك أن مصر كانت بها مجاعة كثيرة ومسغبة شديدة وكانت دانية في شرقي الاندلس كثيرة الخصب فبعث ابن موسى من دانيـة الى الشام مركباً كبيراً محشوا بالزرع فعاد اليه بكل ذخيرة وتحفة خطيرة فلما تغلب المقتدر على عمالة الموفق تحصل بيده ما ذكر واستولى عليه فتحصل عنده من ذلك ما لم يكن عند غيره من ملوك الاندلس.
وهذا هو تلخيص الخبر في الجواز الثالث الى الاندلس بحول الله وقوته .

الملحق « ٤ »

« قطعة من كتاب لمؤرخ مجهول عن ابن جحاف والسيد »(١)

ذكر دولة القاضي أبي أحمد جعفر بن جحاف بن عبدالله بن جعفر بن جحاف بن يمن بن سعيد المعافري البلنسي وذكر سببه :

« لما ملك القادر بلنسية أحدث فيها أحداثاً وغيّر أحكاماً وأظهر منكراً كثيراً وصادق ألفنش وهاداه وراسله ، فخاف أهل بلنسية من أن يملكها للفنش كما ملكه طليطلة ؛ فاجتمعوا وعزموا على قتله وتقديم ابن جحّاف ، فدخل عليه وقتله ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان كما تقدم ، وبويع ابن جحاف في صبيحتها وهو يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من رمضان سنة خمس وثمانين واربعماية ؛ ودخل القصر فوجد فيه من الأموال والأثاث وذخائر الملوك شيئاً كبيراً واحتوى على ذلك كله ، وتفقه بشاطبة على أبي عمر ابن عبد البر وسمع الحديث من أبي العباس العدوي وغيره ، وأقام بها ملكاً الى أن غزاه قمط من أقماط النصارى يقال له القنبيطور ومعناه صاحب الفحص لذريق ، فطمع في أخذ بلنسية فضايقها مضايقة شديدة وحصرها حصراً عظيماً وقطع عنها المرافق ، ونصب المجانيق ، ونقب الأسوار ، وعدم الناس الطعام ، وأكلوا الفيران والكلاب والجياف إلى أن أكل الناس الناسَ ؛ ومن مات منهم أكلوه ، فبلغ الناس من الجهد ما لا يطيقون . وقد ألّف ابن

(١) نشرها ليفي بروفنسال ، انظر : الإسلام في المغرب والأندلس : ٢٣٢ - ٢٣٦ .

علقمة كتاباً في أمر حصارها يبكي القارىء ويذهل العاقل .

فلما طال عليهم البلاء ، وعدموا الصبر ، وكان المرابطون قد خرجوا من الأندلس إلى العدوة ، ولم يجدوا ناصراً ، عزموا على تسليمها للقنبيطور . فاستأمنوه على أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، واشترط على ابن جحاف أن يعطيه جميع ذخائر القادر فأجاب كل منهما الى سؤاله ، وانعقد الصلح بينهما، وفُتح الباب ، ودخل القنبيطور البلد ، ونزل في القصر ، وتملّك بلنسية وذلك في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . فكانت دولة ابن جحاف ثلاث سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام . ثم إن القنبيطور قتل ابن جحاف ، وكان سبب قتله أن القنبيطور ، لعنه الله ، لما تسلم من ابن جحاف جميع ذخائر المقتدر ، كان ابن جحاف قد أمسك منها ذخيرة نفيسة ، فوقع عليها عند القنبيطور ، فسأله عنها ، فأنكرها فأمر بحلفه بحضرة الشهود وأعيان المسلمين وأعيان النصارى فحلف انه ما رآها ولا هي عنده فأخلى سبيله . ثم إنه عثر بعد ذلك عليها . وقال ابو العباس أحمد بن علقمة في تاريخه ، وهو ممن شهد الموطن ، وكان في الحصار ، أن القنبيطور طلبه في الأموال ، فأخرج له أسباباً كثيرة وأثاثاً كثيراً ، فقال له القنبيطور : ومن تكون عنده الأسباب ما يكون عنده مال ؛ فغضب وأمر بتعذيبه فعذّب عذاباً شديداً ؛ ثم أمر به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها . وصيّر الحطب حوله ، وأوقدت فيه النار ، فكان يضم النار اليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه . ولم تزل بلنسية تحت يده الى أن استخلصها منه مزدلي المرابط سنة خمس وتسعين » .

الملحق «٥» (١)

١ ـ مقتل القادر بن ذي النون في بلنسية

« وانتقل حفيد بن ذنون الى بلنسية بمشايعة ملك قشتالة ووجه معه جيشاً حتى دخلها واستقر بها الى شهر رمضان من سنة ٤٨٥ وقد تملك ابن عائشة قائد يوسف بن تاشفين ، مرسية . فاستدعاه أهل بلنسية وعرضوا عليه مدينتهم فأقبل اليها نائبه بجيش من اللمتونيين ، وخرج القاضي ابن جحاف والفقهاء لتلقيه وإدخاله البلد ، ففر ابن ذنون من القصر ولم يمكنه الخروج من المدينة ، فاختفى ببعض الدور الخالية ، فظهر عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة ، وسيق الى القاضي ابن جحاف فأمر بقتله ، تولى ذلك فتى من بني الحديدي القتيل بطليطلة ، وطيف برأسه ، واحتوى ابن جحاف على ما كان له ، وطرحت جثته في سبخة ، فواراه رجل احتساباً وصدقة ، ودفن دون كفن ، فانقطعت مدته على هذه السبيل » .

* * *

٢ ـ ايام القاضي أبي احمد بن جحاف رئيس بلنسية

« ... وكان قاضي حضرة بلنسية وله فيها الأصالة الماجدة ، الناطقة بالقدم الشاهدة ، وكان قد سئم إضافة عدو الله الكنبطور ببلنسية ، وسومه أهلها خطة الخسف ، وسئم الذل ، وضاق صدره بحفيد ابن ذنون المنتقل إليه،

(١) انظر أعمال الاعلام : ١٨٢ ، ٢٠٣ .

بعد تمكين النصـــارى من طليطلة ، فقوي بمكان دولة اللمتونيين وانثال على ايديهم كشف المحنة والخروج من ذل الكنبطور ، متعبد أهل بلنسية ، وحالب ضروع جباياتها بصرامته ، فاستدعى محمد بن عائشة قائد يوسف بن تاشفين ، فوجه إليه جمعاً من المرابطين ، وبرز الناس الى لقائه ، وفر عند ذلك حفيـد ابن ذنون من قصره ، وثار البلد به ، وعثر عليه فقتل بأمر القاضي ابن جحاف كما تقدم ، وتمت بمقتله الرياسة في البلد لابن جحاف ، فرتب الأجناد والخدمة ، واستشعر أبهة الملك ، وعين الألقاب ، وحذا حذو ابن عبـــاد باشبيلية ، فلم تساعده الأيام ، وخاطبه عدو الله الكنبطور يهنيه على ما تهيأ له وفي قلبـــه من استظهاره بسلطان لمتونة النار المضرمة ، وأخذ يعرّض له بالحسنة الـــتي اكتسبها في شهر صومه من قتل سلطانه ، ويطلبه بالاطعمة الـــتي كانت له بحصون بلنسية انتهبها رجاله في حال الحادثة ، فراجعه أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين والاطعمة قد انتهبت ، فكتب اليه الكنبطور يقسم بحرجات أيمـــان دينه ألا يبرح عن بلنسية حتى يظفر به ، ويأخذ ثأر ابن ذنون . وخاطب من يجاوره من أهل الحصون الذي لا طاقة له يستمد الأقوات للمحلة .

ثم كاد الكنبطور عدو الله ابن جحاف وخدعه وداخله في إقامة أوَده ، وتوطيد ملكه إذا صرف اللمتونيين وأزعجهم أنه يسوغ استبداده بالملك ويقيمه مقام ابن ذنون ويقاتل عنه من يريده ، وكان استثقل القـــوم وضاق بمؤنتهم ففعل ، وعند ذلـك استبصر في التضييق عليه ، فعظم الغـلاء ، وتضاعف البلاء ، واستصرخ بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين فبعث إليهم جيشاً عظيماً أتيح للكنبطور عليه الظهـور ، فأيقن النـــاس بالهلكة ، واشتد عليه كلب العدو الى أن استأمنوه لأنفسهم ، وخرج اليه ابن جحاف وأحكم معه العقد ، ودخل العدو المدينة في جمادى الأولى من سنة ٤٨٧ ، وتجهزت اليـه جيوش المسلمين ثانية ، فما أغنت وفازت بها قداحه ، ولما تمكن فيها سام أهلها سوء العذاب واستخلص اموالهم وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف . واعتقـل القاضي أبا المطرف جعفر بن جحاف ، وعم بالنكبة جميع قرابته وأهلـه

وطلبه بمال حفيد ابن ذنون ، فلما استصفى جميع مـاله من ظاهر وباطن أمر باضرام النار ، وسيق القاضي أبو المطرف يوسف في قيوده بين اهله وولده ، وقد حشر الناس من أهل الملتين ، وقال الكنبطور للملأ ما جزاء من قتـل اميره عندكم في شرعكم فصمتوا . فقال: أما نحن فجزاؤه عندنا الاحراق؛ وأمر به وبحملته الى تلك النار وقد لفحت الوجوه على المسافة البعيدة ، فضج المسلمون والنصارى وتضرعوا اليه في ترك الأطفال والعيال إذ لا ذنب لهـم فأسعف الرغبة بعد جهد ومدة ، واحتفر للقاضي أبي المطرف حفرته وأدخل فيها الى حجزته وسوّى التراب حوله وضمت اليه النار ، فلما لفحت وجهه قـــال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم ضمها الى جسده فاحترق رحمـه الله ، ولم يكن غضبه عليه إلا لاجتهاده في طلب النصر ودفعــه إياه بالمطاولة رجاءً في استمساك البلدة للاسلام واستبقاء الكلمة فيها ، وعمد بعد إحراقه إلى الجلة من أهل بلنسية فثقفهم بمجال تفرقة بين سجون الرجال منهم والنساء ، يتجاوب صراخهم أمام المحلة حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل النـاس في الضغط أسرة على طبقاتهم ، وهلك في الثقاف خلـــق كثير منهم ، رحمهم الله ، في أخريات السنة » .

فهارس الكتاب

فهرست الاعلام والقبائل والأماكن

— ت —

— ج —

— ح —

— خ —

— د —

— ر —

— ش —

— ك —

— ل —

— م —

موضوعات الكتاب